


# الغرور وفتنة الإنسان

أ.د. مبروك عطية

الدار المصرية اللبنانية

عطية، مبروك، 1958
الغرور وفتنة الإنسان / مبروك عطية .ـ ط1 .ـ
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2018.
152 ص ؛ 24 سم .
تدمك : 7 ـ 151 ـ 795 ـ 977 ـ 978
1 ـ الغرور في القرآن
أ ـ العنوان 229.41798
رقم الإيداع : 28763 / 2017

©
الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ـ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com



الطبعة الأولى: يناير 2018م

# الغرور وفتنة الإنسان

أ. د. مبروك عطية

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية،

وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة

بجامعة الأزهر

الدار المصرية اللبنانية

ا

ٱلْقَرْ

و

وصح

فتر

السعادة

فلا ي

ولا ي

وَلَا يُوثِقُ

ولا يغ

ولا يغر

ضيق نفسي

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة

الحمـد لله الـذي نهانـا صراحـة عـن الغـرور بـه حيـث قـال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

والصلاة والسلام على من تورمـت قـدماه شـكرا لله، ولـو اغـتر بـه لنـام، وعـلى آلـه وصحبه ومن والاه إلى يوم يجمع الله فيه كل الأنام.

وبعد

فترجـع أهميـة هـذا الموضـوع إلى أن العمـل والخـبرة والمعاينـة والمعايشـة أسـاس السعادة في الدارين.

فلا يغرنّك أن الرزق مضمون؛ فهو مضمون لمن سعى له سعيه.

ولا يغرنّـــك أن الله رحمـــن رحـــيم فهـــو القائـــل: ﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

ولا يغرنّك جمال العيش وطيبه فإما أن يرحل عنك وإما أن ترحل عنه.

ولا يغرنّك أن غيرك مُتَّع بـما لـيس عنـدك مـن نعـم فـالنعم ابـتلاء، وقـد يكـون في ضيق نفسي وأنت لا تعلم.

ولايغرنك أنك اليوم تملك فتعتدي على غيرك وتطغى فقد يأتي يوم تتبادلان فيه الأماكن.

ولله در القائل:

لا تُهينَ الفقيرَ علَّكَ أن تر  كعَ يومًا والدهرُ قد رَفَعَه

ولايغرنك رقة حال غيرك فقد يكون وليًا من أولياء الله الصالحين إن حاربته حاربك ربه.

ولايغرنك زخرف القول تسمعه فتسلّم نفسك من غرك به، فيفتك بك.

ولايغرنك ما ترى من مظهر رجل تحسبه عالمًا لأنه يرتدي زيّ العلماء وما هو بعالم.

ولايغرنك بكاء أحد فترقّ له وتظلم، فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وقالوا إن يوسف أكله الذئب، والذئب مِن أكله بريء، فقد ألقوه في بئر عميقة.

ولايغرنك أن مركبتك جيدة فتسرع بها فتضيع.

ولايغرنك أن أحدًا وعدك بخير فتتكل عليه وكان بوسعك أن تعمل لتنقذ نفسك، فإذا به يخذلك.

ولايغرنك يا طالب العلم أن الامتحان بعد شهور فتهمل والأيام تمر كالبرق.

ولايغرنك أن تموت بالمدينة أو مكة أو بيت المقدس فالأرض لا تشفع لأصحابها.

ولايغرنك كرسي جلست عليه فتعتدي ولا تتواضع، فهو ليس بدائم ولو دام لغيرك ما وصل لك.

ولا يغرنّك مرور السحاب فما كل سحاب بمطر.

ولا يغرنك سمنة من تراه سمينًا فليس كل سمنة صحة.

ولا يغرنك أن السلعة رخيصة فتظن أنها فاسدة، ولا يغرنك غلوّ سعرها فتحسبها متينة فما كل رخيص بفاسد وما كل غال بمتين.

ولا يغرنك كثرة مالك فلو أخذت من تل لاختل مع الأيام.

ولا يغرنك جهل امرئ بالحساب فتغالطه فله رب يحاسبك فيعذبك.

ولا يغرنك أن الطريق الذي تسلكه به ما تحتاج إليه فتمشي فيه خلوًا من زاد وماء، فورود الماء بالماء من الكياسة.

هذه أهم عناصره وموضوعاته التي أرجو أن ينتفع بها كل إنسان وأن تؤتي فيه ثمارها؛ حتى يكون كما قال ربنا تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

صاحب البصيرة غير مغتر، وصاحب البصر وحده قد يكون أحدَّ الناس رؤية وأشقاهم باغتراره بما يرى.

وقد رأيت أن يكون في ثلاثة فصول:

**الأول**: الغرور بالله تعالى.

**والثاني**: الغرور بالحياة الدنيا.

**والثالث**: ثمرات الاغترار.

والله أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه ومن يطلع عليه.

هو وحده وليّ ذلك والقادر عليه وهو حسبي ونعم الوكيل.

**أ.د مبروك عطية**

# الفَصْلُ الأَوَّلُ

## الغرور بالله - تعالى -

**• الغرور في لسان العرب**

يكون الغرور بمعنى الخداع و الإطماع بالباطل يقول ابن منظور في لسان العرب:

غرر: غَرَّهُ يَغُرُّهُ غَرًّا وَغُرُورًا وَغِرَّةً؛ الْأَخِيرَةُ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ، فَهُوَ مَغْرُورٌ وَغَرِيرٌ: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بِالْبَاطِلِ؛ قَالَ:

إِنَّ امْرَأً غَرَّهُ مِنْكُنَّ وَاحِدَةٌ بَعْدِي وَبَعْدَكِ فِي الدُّنْيَا، لَمَغْرُورُ

أَرَادَ لَمَغْرُورٌ جِدًّا أَوْ لَمَغْرُورٌ جِدُّ مَغْرُورٍ وَحَقُّ مَغْرُورٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ فَائِدَةٌ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ كُلَّ مَنْ غُرَّ فَهُوَ مَغْرُورٌ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ لَمَغْرُورٌ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا فُسِّرَ. وَاغْتَرَّ هُوَ: قَبِلَ الْغُرُورَ. وَأَنَا غَرَرٌ مِنْكَ، أَيْ مَغْرُورٌ وَأَنَا غَرِيرُكَ مِنْ هَذَا أَيْ أَنَا الَّذِي غَرَّكَ مِنْهُ أَيْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ عَلَى مَا تُحِبُّ. وَفِي الْحَدِيثِ: الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ؛ أَيْ لَيْسَ بِذِي نُكْرٍ، فَهُوَ يَنْخَدِعُ لِانْقِيَادِهِ وَلِينِهِ، وَهُوَ ضِدُّ الْخَبِّ. يُقَالُ: فَتًى غِرٌّ، وَفَتَاةٌ غِرٌّ، وَقَدْ غَرِرْتَ تَغَرُّ غَرَارَةً؛ يُرِيدُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمَحْمُودَ مِنْ طَبْعِهِ الْغَرَارَةُ وَقِلَّةُ الْفِطْنَةِ لِلشَّرِّ وَتَرْكُ الْبَحْثِ عَنْهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْهُ جَهْلًا وَلَكِنَّهُ

كرمٍ وحسن خُلُقٍ. ومنه حديث الجنة: يدخلني غِرَّةُ الناس، أي البُلْهُ الذين لم يُجرّبوا الأمور فهم قليلو الشر منقادون، فإن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتزوّد لمعاده ونبذ أمور الدنيا فليس غِرًّا فيما قصد له ولا مذمومًا بنوعٍ من الذمّ؛ وقول طرفة:

أبا منذرٍ، كانت غرورًا صحيفتي ولم أُعطِكم، في الطوعِ، مالي ولا عِرضي

إنما أراد: ذات غرور لا تكون إلا على ذلك. قاله ابن سيده قال: لأن الغرور عرض والصحيفة جوهر، والجوهر لا يكون عرضًا. والغَرور: ما غرّك من إنسانٍ وشيطانٍ وغيرهما، وخصّ بعضهم به الشيطان. وقوله تعالى: ولا يغرّنّكم بالله الغَرور؛ قيل: الغَرور الشيطان؛ قال الزجاج: ويجوز الغُرور بضم الغين، وقال في تفسيره: الغُرور الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارٍّ مثل شاهدٍ وشهودٍ وقاعدٍ وقعودٍ. والغُرور، بالضم: ما اغتُرّ به من متاع الدنيا. وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ يقول: لا تغرّنّكم الدنيا فإن كان لكم حظٌّ فيها ينقص من دينكم فلا تؤثروا ذلك الحظ ولا يغرّنّكم بالله الغَرور؛ والغَرور: الشيطان يغرّ الناس بالوعد الكاذب والتمنية. وقال الأصمعي: الغَرور الذي يغرّك. والغُرور، بالضم: الأباطيل، كأنها جمع غَرٍّ مصدر غررته غرًّا، قال: وهو أحسن من أن يُجعل غررت غرورًا لأن المتعدّي من الأفعال لا تكاد تقع مصادرها على فُعولٍ إلا شاذًّا، وقد قال الفراء: غررته غرورًا، قال: وقوله: ولا يغرّنّكم بالله الغَرور يريد به زينة الأشياء في الدنيا. والغَرور: الدنيا، صفةٌ غالبة. أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي ما خدعك وسوّل لك حتى أضعت ما وجب عليك، وقال غيره: ما غرّك أي ما خدعك بربك وحملك على معصيته والأمن من عقابه فزيّن لك المعاصي

وَالأَمَانِيِّ الكَاذِبَةِ فَارْتَكَبْتَ الكَبَائِرَ، وَلَمْ تَخَفْهُ وَأَمِنْتَ عَذَابَهُ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ وَتَبْكِيتٌ لِلْعَبْدِ الَّذِي يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ وَلا يَخَافُهُ، وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ: مَا غَرَّكَ بِفُلانٍ أَيْ كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَيْهِ. وَأَنْشَدَ أَبُو الهَيْثَمِ:

أَغَرَّ هِشَامًا، مِنْ أَخِيهِ ابْنِ أُمِّهِ قَوَادِمُ ضَأْنٍ يَسَّرَتْ وَرَبِيعُ

قَالَ: يُرِيدُ أَجْسَرَهُ عَلَى فِرَاقِ أَخِيهِ لِأُمِّهِ كَثْرَةُ غَنَمِهِ وَأَلْبَانِهَا، قَالَ: وَالقَوَادِمُ وَالأَوَاخِرُ فِي الأَخْلافِ لا تَكُونُ فِي ضُرُوعِ الضَّأْنِ لِأَنَّ لِلضَّأْنِ وَالمَعْزِ خِلْفَيْنِ مُتَحَاذِيَيْنِ وَمَا لَهُ أَرْبَعَةُ أَخْلافٍ غَيْرُهُمَا، وَالقَادِمَانِ: الخِلْفَانِ اللَّذَانِ يَلِيَانِ البَطْنَ وَالآخِرَانِ اللَّذَانِ يَلِيَانِ الذَّنَبَ فَصَيَّرَهُ مَثَلًا لِلضَّأْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَغَرَّ هِشَامًا لِضَأْنٍ لَهُ يَسَّرَتْ وَظَنَّ أَنَّهُ قَدِ اسْتَغْنَى عَنْ أَخِيهِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الغَرِيرُ المَغْرُورُ. وَفِي حَدِيثِ سَارِقِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَجِبْتُ مِنْ غِرَّتِهِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ أَيْ اغْتِرَارِهِ. وَالغَرَارَةُ مِنَ الغِرِّ، وَالغِرَّةُ مِنَ الغَارِّ، وَالتَّغِرَّةُ مِنَ التَّغْرِيرِ، وَالغَارُّ: الغَافِلُ. التَّهْذِيبُ: وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّمَا رَجُلٍ بَايَعَ آخَرَ عَلَى مَشُورَةٍ فَإِنَّهُ لا يُؤَمَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةَ أَنْ يُقْتَلا؛ التَّغِرَّةُ مَصْدَرُ غَرَّرْتُهُ إِذَا أَلْقَيْتَهُ فِي الغَرَرِ وَهُوَ مِنَ التَّغْرِيرِ كَالتَّعِلَّةِ مِنَ التَّعْلِيلِ؛ قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ: وَفِي الكَلامِ مُضَافٌ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ خَوْفَ تَغِرَّةٍ فِي أَنْ يُقْتَلا، أَيْ خَوْفَ وُقُوعِهِمَا فِي القَتْلِ فَحَذَفَ المُضَافَ الَّذِي هُوَ الخَوْفُ وَأَقَامَ المُضَافَ إِلَيْهِ الَّذِي هُوَ تَغِرَّةٌ مُقَامَهُ، وَانْتَصَبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ أَنْ يُقْتَلا بَدَلًا مِنْ تَغِرَّةٍ، وَيَكُونَ المُضَافُ مَحْذُوفًا كَالأَوَّلِ، وَمَنْ أَضَافَ تَغِرَّةَ إِلَى أَنْ يُقْتَلا فَمَعْنَاهُ خَوْفَ تَغِرَّةِ قَتْلِهِمَا؛ وَمَعْنَى الحَدِيثِ: أَنَّ البَيْعَةَ حَقُّهَا أَنْ تَقَعَ صَادِرَةً عَنِ المَشُورَةِ وَالاتِّفَاقِ، فَإِذَا اسْتَبَدَّ رَجُلانِ دُونَ الجَمَاعَةِ فَبَايَعَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فَذَلِكَ تَظَاهُرٌ مِنْهُمَا بِشَقِّ العَصَا وَاطِّرَاحِ الجَمَاعَةِ، فَإِنْ عَقَدَ لِأَحَدٍ بَيْعَةً فَلا يَكُونُ المَعْقُودُ لَهُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، وَلْيَكُونَا مَعْزُولَيْنِ مِنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي تَتَّفِقُ عَلَى تَمْيِيزِ الإِمَامِ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ عُقِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا وَقَدِ ارْتَكَبَا

وَالإِسْتِغْنَاءِ عَنْ رَأْيِهِمْ، تِلْكَ الفَعْلَةَ الشَّنِيعَةَ الَّتِي أَحْفَظَتِ الجَمَاعَةَ مِنَ التَّهَاوُنِ بِهِمْ فَإِنَّهُ يَقُولُ: لَمْ يُؤَمِّنْ أَنْ يُقْتَلَا، هَذَا قَوْلُ ابْنِ الأَثِيرِ، وَهُوَ مُخْتَصَرُ قَوْلِ الأَزْهَرِيِّ، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ لَا يُبَايِعُ الرَّجُلَ إِلَّا بَعْدَ مُشَاوَرَةِ المَلَإِ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِهِمْ، لِئَلَّا يُبَايِعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ اتِّفَاقٍ مِنَ المَلَإِ لَمْ يُؤَمَّرْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا تَغِرَّةً بِمَكْرِ المُؤَمَّرِ مِنْهُمَا، لِئَلَّا يُقْتَلَا أَوْ أَحَدُهُمَا، وَنُصِبَ تَغِرَّةً لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ وَإِنْ شِئْتَ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَوْلُهُ: أَنْ يُقْتَلَا أَيْ حِذَارَ أَنْ يُقْتَلَا وَكَرَاهَةَ أَنْ يُقْتَلَا، قَالَ الأَزْهَرِيُّ: وَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا فَسَّرَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَا فَسَّرْتُهُ، فَافْهَمْهُ. وَالغَرِيرُ: الكَفِيلُ. وَأَنَا غَرِيرُ فُلَانٍ أَيْ كَفِيلُهُ. وَأَنَا غَرِيرُكَ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ أَحْذَرُكَهُ، وَقَالَ أَبُو نَصْرٍ فِي كِتَابِ الأَجْنَاسِ: أَيْ لَنْ يَأْتِيَكَ مِنْهُ مَا تَغْتَرُّ بِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا القَيِّمُ لَكَ بِذَلِكَ. قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: كَأَنَّهُ قَالَ أَنَا الكَفِيلُ لَكَ بِذَلِكَ، وَأَنْشَدَ الأَصْمَعِيُّ فِي الغَرِيرِ الكَفِيلِ رَوَاهُ ثَعْلَبٌ عَنْ أَبِي نَصْرٍ عَنْهُ قَالَ:

أَنْتَ لِخَيْرِ أُمَّةٍ مُجِيرُهَا ... وَأَنْتَ مِمَّا سَاءَهَا غَرِيرُهَا

قَالَ أَبُو زَيْدٍ فِي كِتَابِ الأَمْثَالِ: وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي الخِبْرَةِ وَالعِلْمِ: أَنَا غَرِيرُكَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ أَيِ اغْتَرَّنِي فَسَلْنِي مِنْهُ عَلَى غِرَّةٍ أَيْ أَنِّي عَالِمٌ بِهِ، فَمَتَى سَأَلْتَنِي عَنْهُ أَخْبَرْتُكَ بِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ لِذَلِكَ وَلَا رَوِيَّةَ فِيهِ. وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ فِي هَذَا المَثَلِ: مَعْنَاهُ أَنَّكَ لَسْتَ بِمَغْرُورٍ مِنِّي لَكِنِّي أَنَا المَغْرُورُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بَلَغَنِي خَبَرٌ كَانَ بَاطِلًا فَأَخْبَرْتُكَ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى مَا قُلْتُ لَكَ وَإِنَّمَا أَدَّيْتُ مَا سَمِعْتُ. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِآخَرَ: أَنَا غَرِيرُكَ مِنْ تَقُولَ ذَلِكَ، يَقُولُ مِنْ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ، قَالَ: وَمَعْنَاهُ اغْتَرَّنِي فَسَلْنِي عَنْ خَبَرِهِ فَإِنِّي عَالِمٌ بِهِ أُخْبِرُكَ عَنْ أَمْرِهِ عَلَى الحَقِّ وَالصِّدْقِ.

**والغرور الباطل قال:**

قَالَ: الْغُرُورُ الْبَاطِلُ؛ وَمَا اغْتَرَرْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ، فَهُوَ غُرُورٌ. وَغَرَّرَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ تَغْرِيرًا وَتَغِرَّةً: عَرَّضَهُمَا لِلْهَلَكَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ، وَالِاسْمُ الْغَرَرُ، وَالْغَرَرُ الْخَطَرُ. وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ وَهُوَ مِثْلُ بَيْعِ السَّمَكِ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ. وَالتَّغْرِيرُ: حَمْلُ النَّفْسِ عَلَى الْغَرَرِ، وَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ تَغْرِيرًا وَتَغِرَّةً كَمَا يُقَالُ حَلَّلَ تَحْلِيلًا وَتَحِلَّةً وَعَلَّلَ تَعْلِيلًا وَتَعِلَّةً، وَقِيلَ: بَيْعُ الْغَرَرِ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ مَا كَانَ لَهُ ظَاهِرٌ يَغُرُّ الْمُشْتَرِيَ وَبَاطِنٌ مَجْهُولٌ، يُقَالُ: إِيَّاكَ، وَبَيْعَ الْغَرَرِ قَالَ: بَيْعُ الْغَرَرِ أَنْ يَكُونَ عَلَى غَيْرِ عُهْدَةٍ وَلَا ثِقَةٍ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَيَدْخُلُ فِي بَيْعِ الْغَرَرِ الْبُيُوعُ الْمَجْهُولَةُ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِكُنْهِهَا الْمُتَبَايِعَانِ حَتَّى تَكُونَ مَعْلُومَةً. وَفِي حَدِيثِ مُطَرِّفٍ: إِنَّ لِي نَفْسًا وَاحِدَةً وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُغَرِّرَ بِهَا؛ أَيْ أَحْمِلَهَا عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ، قَالَ: وَبِهِ سُمِّيَ الشَّيْطَانُ غُرُورًا لِأَنَّهُ يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَحَابِّهِ وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَسُوءُهُ، كَفَانَا اللهُ فِتْنَتَهُ. وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ: وَتَعَاطِي مَا نُهِيتَ عَنْهُ تَغْرِيرًا أَيْ مُخَاطَرَةً وَغَفْلَةً عَنْ عَاقِبَةِ أَمْرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: لَأَنْ أَغْتَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أُقَاتِلَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْتَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الْمَعْنَى أَنْ أُخَاطِرَ بِتَرْكِي مُقْتَضَى الْأَمْرِ بِالْأُولَى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَاطِرَ بِالدُّخُولِ تَحْتَ الْآيَةِ الْأُخْرَى.

* **معنى الغرور بالله**

خلاصة الغرور بالله تعالى أن يعمل الإنسان بالمعاصي متمنيًا أن يغفر الله له.

**قال القرطبي:**

الغرور الشيطان. وغرور جمع غر، وغر مصدر ويكون الغرور مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن (غررته) متعد، والمصدر المتعدي إنما هو على

وفعل؛ نحو: ضربته ضربًا، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا: لزمته لزومًا، ونهكه المرض نهوكا. فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير، قال: الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة. وقراءة العامة الغرور (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أي لا يغرنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم. وقرأ أبو حيوة وأبو السمال العدوي ومحمد بن السميقع الغرور ( برفع الغين ) وهو الباطل؛ أي لا يغرنكم الباطل. وقال ابن السكيت: والغرور (بالضم) ما اغتر به من متاع الدنيا. قال الزجاج: ويجوز أن يكون الغرور جمع غار؛ مثل قاعد وقعود. النحاس: أو جمع غر، أو يشبه بقولهم: نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما. الزمخشري: أو مصدر (غره) كاللزوم والنهوك.

ويقول ابن كثير في آية الحديد: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم: سيغفر لنا. وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما زلتم في هذا حتى جاء الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان.

قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا [ أي ] بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلًا.

قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم، ويغشونهم، ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ.

يقال هذا للمنافقين يوم الذين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئًا ولا هم ينصرون.

و معناه كما ذكرت أنهم كانوا يقولون: سيغفر لنا سيغفر لنا، وما ذلك إلا من الشيطان.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

قال الطبري:

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

يقول تعالى ذكره: يا أيها الإنسان الكافر، أي شيء غرك بربك الكريم، غر الإنسان به عدوه المسلط عليه.

كما حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝﴾ شيء ما غر ابن آدم هذا العدو الشيطان.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ يقول: الذي خلقك أيها الإنسان فسوى خلقك ﴿فَعَدَلَكَ ۝﴾ واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والشام والبصرة (فعدَّلك) بتشديد الدال، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بتخفيفها، وكأن من قرأ ذلك بالتشديد وجه معنى الكلام إلى أنه جعلك معتدلا معدل الخلق مقوّمًا، وكأن الذين قرأوه بالتخفيف، وجهوا معنى الكلام إلى صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء، إما إلى صورة حسنة، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباته.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجبهما إليَّ أن أقرأ به قراءة من قرأ ذلك بالتشديد، لأن دخول «في» للتعديل أحسن في العربية من دخولها للعدل، ألا ترى أنك تقول: عدّلتك في كذا، وصرفتك إليه، ولا تكاد تقول: عدلتك إلى كذا وصرفتك فيه، فلذلك اخترت التشديد.

وبنحو الذي قلنا في ذلك وذكرنا أن قارئي ذلك تأوّلوه، جاءت الرواية عن أهل التأويل أنهم قالوه.

ذكر الرواية بذلك:

حدثني محمد بن عمرو، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا ورقاء، جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾ قال: في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن إسماعيل، في قوله: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾ قال: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن إسماعيل، عن أبي صالح ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾ قال: خنزيرا أو حمارا.

حدثني يعقوب، قال: حدثنا ابن علية، عن أبي رجاء، عن عكرمة، في قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾ قال: إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير.

حدثني محمد بن سنان القزاز، قال: حدثنا مطهر بن الهيثم، قال: حدثنا موسى بن علي بن أبي رباح اللخمي، قال: حدثني أبي، عن جدي، أن النبي ﷺ قال له: «ما ولد لك؟» قال: يا رسول الله ما عسى أن يولد لي، إما غلام، وإما جارية، قال: «فمن يشبه؟» قال: يا رسول الله من عسى أن يشبه؟ إما أباه، وإما أمه؛ فقال النبي ﷺ عندها: «مه، لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر الله كل نسب بينها وبين آدم، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ قال: سلكك».

* ليس بأمانيكم

راجعت طائفة من كتب التفسير في قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، ولم يشف غليلي ما طالعته فيها، وخير ما رأيته قول القرطبي:

عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا. وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب. وقال قتادة والسدي: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم. وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ السوء هاهنا الشرك، قال الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾. وعنه أيضا ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ قال: ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته فلا، قد ذكر الله قوما فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ

﴿ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾. وقال الضحاك: يعني اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب. وقال الجمهور: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بعمله السوء، فأما مجازاة الكافر فالنار؛ لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: لما نزلت من يعمل سوءًا يجز به بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها. وخرج الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول، في الفصل الخامس والتسعين) حدثنا إبراهيم بن المستمر الهذلي قال حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حيان أبو زيد قال: سمعت أبي يذكر عن أبيه قال صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة فقال لنافع: لا تمر بي على المصلوب؛ يعني ابن الزبير، قال: فما فجئه في جوف الليل أن صك محمله جذعه؛ فجلس فمسح عينيه ثم قال: يرحمك الله أبا خبيب أن كنت وأن كنت! ولقد سمعت أباك الزبير يقول: قال رسول الله ﷺ: من يعمل سوءا يجز به في الدنيا أو في الآخرة فإن يك هذا بذاك فهيه. قال الترمذي أبو عبد الله: فأما في التنزيل فقد أجمله فقال: من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فدخل فيه البر والفاجر والعدو والولي والمؤمن والكافر؛ ثم ميز رسول الله ﷺ في هذا الحديث بين الموطنين فقال: يجز به في الدنيا أو في الآخرة وليس يجمع عليه الجزاء في الموطنين؛ ألا ترى أن ابن عمر قال: فإن يك هذا بذاك فهيه؛ معناه أنه قاتل في حرم الله وأحدث فيه حدثا عظيما حتى أحرق البيت ورمي الحجر الأسود بالمنجنيق فانصدع حتى ضبب بالفضة فهو إلى يومنا هذا كذلك، وسمع للبيت أنينا: آه آه! فلما رأى ابن عمر فعله ثم رآه مقتولًا مصلوبًا ذكر قول رسول الله ﷺ: من يعمل سوءا يجز به. ثم قال: إن يك هذا القتل بذاك الذي فعله فهيه؛ أي كأنه جُوزِيَ بذلك السوء هذا القتل والصلب. رحمه الله! ثم ميز رسول الله ﷺ في حديث آخر بين الفريقين؛ حدثنا أبي رحمه الله قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا محمد بن مسلم عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي قال: لما نزلت من يعمل سوءا يجز به

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما هذه بمبقية منا؛ قال: (يا أبا بكر إنما يجزى المؤمن بها في الدنيا ويجزى بها الكافر يوم القيامة). حدثنا الجارود قال حدثنا وكيع وأبو معاوية وعبدة عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي قال: لما نزلت من يعمل سوءا يجز به قال أبو بكر: كيف الصلاح يا رسول الله مع هذا؟ كل شيء عملناه جزينا به، فقال: غفر الله لك يا أبا بكر ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟. قال: بلى. قال فذلك مما تجزون به ففسر رسول الله ﷺ ما أجمله التنزيل من قوله: من يعمل سوءا يجز به. وروى الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنها لما نزلت قال له النبي ﷺ: أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة. قال: حديث غريب: وفي إسناده مقال: وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل. ومولى ابن سباع مجهول، وقد روي هذا من غير وجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح أيضا؛ وفي الباب عن عائشة.

قلت: خرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي، قال حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أمه أنها سألت عائشة عن هذه الآية وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه وعن هذه الآية من يعمل سوءا يجز به فقالت عائشة: ما سألني أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها؛ فقال: يا عائشة، هذه مبايعة الله بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع فيجدها في عيبته، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر من الكير. واسم «ليس» مضمر فيها في جميع هذه الأقوال؛ والتقدير: ليس الكائن من أموركم ما تتمنونه، بل من يعمل سوءا يجز به. وقيل: المعنى ليس ثواب الله بأمانيكم؛ إذ قد تقدم: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات».

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يعني المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾. وقيل: من يعمل سوءًا يجز به إلا أن يتوب. وقراءة الجماعة ولا يجد له بالجزم عطفًا على (يجز به). وروى ابن بكار عن ابن عامر «ولا يجدُ» بالرفع استئنافًا. فإن حملت الآية على الكافر فليس له غدًا ولي ولا نصير. وإن حملت على المؤمن فليس له ولي ولا نصير دون الله.

ورأيت أن معنى الآية الكريمة أن الأماني كما ذكرت قبل: الغرور بالله عز وجل، والفرح بالملحية والطائفية، كل حزب بما لديهم فرحون.

والعبرة كما قال العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولم يزل في الناس من يقول: جماعتنا خير من جماعة فلان وعلان.

أو فرقتنا هي الناجية، وكل الفرق على هلاك.

وقد حسمت الآية القضية، فالله عز وجل يقول: ليس وعد الله بالرحمة والمغفرة بالتمني.

فمن يعمل سوءًا يجز به، فلا ينفعه تمنيه أي غروره بواسع رحمة ربه.

* والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، وحسن الظن بالله تعالى معناه ألا يضيع عملك لقوله عز من قائل: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝﴾.

لكن كيف تحسن الظن بربك ولا عمل لك!

فالمدار كله على العمل المبنيّ على الإيمان وحسن الظنّ بالله، ولا يغترّ أحد بها يقول بعض الشعراء:

قَـدِمْتُ عَـلَى الكَـرِيمِ بِغَيْـرِ زَادٍ ... سِـوَى الإِخْـلَاصِ والقَلْـبِ السَّلِيمِ

فحمل الزاد أقبح ما يكون    إذا كان القدوم على كريم

فالإفراط في الرجاء الذي ينفي الخوف يُسلم إلى الكسل وركود الحياة، وعلماء التوحيد يقولون:

وغلِّب الخوف على الرجاء    وسِرْ لمولاك بلا تناءِ

* كثرة الأماني سبيل المفلسين

وكثرة الأماني سبيل المفلسين الذين لا عمل لهم كما هي سبيل الذين يدعون الطموح وما هم ببالغيه لنومهم وكسلهم فما أكثر الأمانيّ عند المُفلسين من كنز العمل الصالح وهذا يلتقي مع الحديث: «الكَيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني» رواه الطبراني وأحمد والترمذي وقال: حسن. «الجامع الصغير للسيوطي».

لو أحسن هؤلاء الظَّنّ بالله لاستعدوا للقائه بالعمل الصالح الذي أمرَهم به، فهو القائل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

فالرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء أمر بالعمل الذي تطيقه النفوس المكلفة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

* هل اغتر أحد من الأنبياء بالله؟!

وقد خطرت لي فكرة وأنا أتحدث عن الغرور بالله – تعالى – وكثرة الأمانيّ وهي تتمثل في سؤال:

هل اغتر أحد من الأنبياء بالله تعالى؟

والجواب: لا و حاشاهم.

كيف يفتر داود عليه السلام مثلًا بالله وكان يصوم يوما ويفطر يوما!

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُد. وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُد. كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ. وَيَنَامُ سُدُسَهُ. وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا».

وقد جاءت البشرى بيحيى، نبيِّ الله زكريا عليه السلام وهو قائم يصلي في المحراب، لا وهو نائم ولا لاعب.

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

أي في حال قيامه بالصلاة كما ذكر جميع أهل التفسير.

وتأمل قول الله تعالى في إسماعيل عليه السلام من سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝﴾.

ويقول تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وقد تورمت قدما رسول الله ﷺ من قيام الليل قائلًا لمن قال له: إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر: «أفلا أكون عبدا شكورا».

والنبيون أعلم الناس بالله تعالى الذي اصطفاهم وأرسلهم بكلمته إلى عباده، وكذلك الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وفي خاتمة الأعراف يقول ربنا تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾.

يقول القرطبي:

فيه ثماني مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع. وقال ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده؛ عن الزجاج. وقال غيره لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رسل الله؛ كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ قيل: يصلون. وقيل: يذلون، خلاف أهل المعاصي. الثانية: والجمهور من العلماء في أن هذا موضع سجود للقارئ. وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل: خمس عشرة. أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق. وهو قول ابن حبيب وابن وهب - في رواية - وإسحاق. ومن العلماء من زاد سجدة الحجر قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة؛ قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه. فأسقط ثانية الحج. وهو قول أصحاب الرأي والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها. ورواه ابن ماجة وأبو داود في سننهما عن عبد الله بن منين من بني عبد كلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن؛ منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان. وعبد الله بن منين لا يحتج به؛ قاله أبو محمد عبد الحق. وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال قلت: يا رسول الله، أفي سورة الحج سجدتان؟ قال: {نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما}. في إسناده عبد الله ابن لهيعة، وهو ضعيف جدا. وأثبتهما الشافعي وأسقط سجدة (ص). وقيل: إحدى عشرة سجدة، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصل. وهو مشهور مذهب مالك. وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم. وفي سنن ابن ماجة عن أبي الدرداء قال: سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة

وص وسجدة الحواميم. وقيل: عشر، وأسقط آخرة الحج وص وثلاث المفصل؛ ذكر عن ابن عباس. وقيل: إنها أربع، سجدة آلم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق. وسبب الخلاف اختلاف النقل في الأحاديث والعمل، واختلافهم في الأمر المجرد بالسجود في القرآن، هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض في الصلاة؟ الثالثة: واختلفوا في وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعي: ليس بواجب. وقال أبو حنيفة: هو واجب. وتعلق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب، وبقوله عليه السلام: «إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله»، وفي رواية أبي كريب {يا ويلي}، وبقوله عليه السلام إخبارًا عن إبليس لعنه الله {أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار}. أخرجه مسلم. ولأن النبي ﷺ كان يحافظ عليه. وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت - أخرجه البخاري - أنه قرأ آية سجدة على المنبر فنزل فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها في الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود، فقال {أيها الناس على رسلكم! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء}. وذلك بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين. فلم ينكر عليه أحد فثبت الإجماع به في ذلك. وأما قوله {أمر ابن آدم بالسجود} فإخبار عن السجود الواجب. ومواظبة النبي ﷺ تدل على الاستحباب! والله أعلم. الرابعة: ولا خلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونية واستقبال قبلة ووقت. إلا ما ذكر البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة. وذكره ابن المنذر عن الشعبي. وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم؟ اختلفوا في ذلك؛ فذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لها. وقد روي في الأثر عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا سجد كبر، وكذلك إذا رفع كبر. ومشهور مذهب مالك أنه يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة. واختلف عنه في التكبير لها في غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قال عامة الفقهاء، ولا سلام لها عند الجمهور. وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه [...] منها، وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أولها للإحرام. وعلى قول من لا يسلم



يكون للس
وتحريمها
بل أولى،
فقيل: يس
وقيل: ما
ولا بعد ال
مذهبنا. و
عليها لعم
لأجله نهي
سجوده: ا
ابن عباس
فإن كان في
لا يأمن ذ
مالك النهي
زيادة في أ
وعلى هذا
البخاري
فسجد؛ فق
فلا أزال أ
يسمع الس
لهذا غدونا
يكون طاه

يكون للسجود فحسب. والأول أولى؛ لقوله عليه السلام {مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم} وهذه عبادة لها تكبير، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى، لأنها فعل وصلاة الجنازة قول. وهذا اختيار ابن العربي. الخامسة: وأما وقته فقيل: يسجد في سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب. وهو قول الشافعي وجماعة. وقيل: ما لم يسفر الصبح، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر. وقيل: لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر. وقيل: يسجد بعد الصبح ولا يسجد بعد العصر. وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا. وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتب عليها لعموم النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح. واختلافهم في المعنى الذي لأجله نهي عن الصلاة في هذين الوقتين، والله أعلم. السادسة: فإذا سجد يقول في سجوده: اللهم احطط عني بها وزرا، واكتب لي بها أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا. رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن ماجة. السابعة: فإن قرأها في صلاة، فإن كان في نافلة سجد إن كان منفردا أو في جماعة وأمن التخليط فيها. وإن كان في جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه. وقيل: لا يسجد. وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك النهي عنه فيها، سواء كانت صلاة سر أو جهر، جماعة أو فرادى. وهو معلل بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة. وقيل: معلل بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه. وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط. الثامنة: روى البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد؛ فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. انفرد بإخراجه. وفيه {وقيل لعمران بن حصين: الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال: أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه. وقال سلمان: ما لهذا غدونا. وقال عثمان: إنما السجدة على من استمعها. وقال الزهري: لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت في حضر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكبا فلا عليك، حيث كان وجهك. وكان السائب لا يسجد لسجود القاص}.

• ولقد غر قومًا قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وعدوا على ذلك وهمًا [illegible] قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة.

يقول الطبري:

القول في تأويل قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

يعني - جل ثناؤه - بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بأن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول الله - ﷺ - إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة وما فيها من الحق: من أجل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أربعون يومًا، وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارًا منهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل، في ادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدًا من ولده النار إلا تحلة القسم. فأكذبهم الله على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمدًا - ﷺ - أنهم هم أهل النار هم فيها خالدون، دون المؤمنين بالله ورسله وما جاءوا به من عنده.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ قالوا: لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التي نصبنا فيها العجل، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا قال الله - عز وجل -: «وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» أي قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه، عن الربيع في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ الآية، قال: قالوا: لن نعذب في النار إلا أربعين يوما، قال: يعني اليهود قال: وقال قتادة مثله وقال: هي الأيام التي نصبوا فيها العجل. يقول الله عز وجل: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال حدثني حجاج قال: قال ابن جريج قال مجاهد قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال: غرهم قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

وتأمل قوله يرحمه الله: بما كانوا يختلقون من الكذب والضلال، فلا شيء ينجي سوى العمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل؛ ولا يرضيه تعالى شيء وما يحب شيئًا أكثر مما فرضه على عباده، وما فرضه على عبده معروف غير منكور، ولا لبس فيه.

* الغرور حتى في الحب

وفي الحب غرور و وهم و دجل و تحريف، وقد ادعى قوم أنهم يحبون الله فحكم عليهم ربنا تعالى و بيّن لهم سبيل حبه إياهم، وهو أعلى مما ادعوه من حبهم له، حكم عليهم بهذه الآية من سورة آل عمران حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

فيا من تدعى حب الله عز وجل اتبع منهج رسول الله ﷺ لتثبت صدق دعواك.

ويا من تحب ولدك أطعمه واكسه واحرص على حسن تربيته.

ويا من تدعي حب زوجتك أكرمها واملأ بيتها خيرًا وهكذا...

* بين سؤال وجواب

سأل الأعرابي رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ لكن الجواب كان مختلفًا وهو من الحكمة بمكان فقال له عليه الصلاة والسلام: ماذا أعددت لها؟

فليس المهم أن تسأل عن الساعة لكن المهم أن تسأل نفسك: وماذا أعددت أنا لها؟

**قال ابن حجر في الفتح:**

عن أنس خرج رسول الله ﷺ فتعرض له أعرابي أخرجه أبو نعيم وله من طريق شريك عن أبي نمر عن أنس دخل رجل والنبي ﷺ يخطب ومن رواية أبي ضمرة عن حميد عن أنس جاء رجل فقال متى الساعة فقام النبي ﷺ إلى الصلاة ثم صلى ثم قال أين السائل عن الساعة ويجمع بينها بأن سأله والنبي ﷺ يخطب فلم يجبه حينئذ فلما انصرف من الصلاة وخرج من المسجد رآه فتذكر سؤاله أو عاوده الأعرابي في السؤال فأجابه حينئذ قوله ما أعددت لها قال الكرماني سلك مع السائل أسلوب الحكيم وهو تلقى السائل بغير ما يطلب مما يهمه أو هو أهم قوله أنت مع من أحببت زاد سلام بن أبي الصهباء عن ثابت عن أنس إنك مع من أحببت ولك ما احتسبت أخرجه أبو نعيم وله مثله من طريق قرة بن خالد عن الحسن عن أنس وأخرج أيضا من طريق أشعث عن الحسن عن أنس المرء مع من أحب وله ما اكتسب ومن طريق مسروق عن عبد الله أنت مع من أحببت وعليك ما اكتسبت وعلى الله ما احتسبت.

**وأنا أقول:**

ينقصنا بلا شك استثمار النصوص لمعالجة واقعنا.

ومن هذا الاستثمار هنا: ألا تقول لطفلتك: متى أراك عروسا؟

ولكن اسأل نفسك: ماذا أعددت لعروسك التي تنمو مع الأيام كي تصبح كما تحب!

ولا تسأل طفلك: متى أراك طبيبا؟

ولكن اسأل نفسك: هل أعددت العدة لهذا الطبيب المنتظر؟

ولا تقل لولي فتاة: كم أحبها يا عمي!!

ولكن قل له: لقد أعددت من أجلها بيتًا يليق بسكناها و ذهبًا يصلح لحلاها.

لكـن كـما قلـت: في الحـب غـرور، أي ادعـاء بالباطـل؛ حيـث الكـلام المعسـول والفعل المر!

* تحقيق المعادلة

والحق أن تحقيق المعادلة التي بني عليها الدين كله يكون باعتقاد أن الله عز وجل هو الغفور الرحيم وأن عذابه هو العذاب الأليم؛ فلا ييأس عبد من رحمته غير مغتر، ولا يأمن عبد عذابه وهو مفرط قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

قال ابن كثير: أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ رواه ابن أبي حاتم، وهو مرسل.

وقال ابن جرير، حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي - ﷺ - قال: طلع علينا رسول الله - ﷺ - من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد، إن الله يقول لم تقنط عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال سعيد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

قال: بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه».

ومعنى الحديث أن رحمة الله أوسع من الخيال، وأن عذابه ليس مثله عذاب لو اطلع عليه أحد لقتل نفسه. والمعنى - والله أعلم - أنه يقتل نفسه عبادة وتبتلًا.

***

* لماذا

الد

زوال، و

ومنتهى غ

والقرار.

وليس

قضاياها ون

وإنما الع

يحرم طيباته

وجعل لهم

بالسلام والجنو

وأهم ما يغتر

ماله وهو قار

# الفصل الثاني

## الغرور بالحياة الدنيا

* لماذا كانت الدنيا غرورا؟

الدنيا دار غرور لأنه لا قرار فيها ولا استقرار فكل من فيها وما فيها إلى زوال، والأحمق المغرور من غرته دنياه؛ فصارت منتهى شغله ومنتهى علمه، ومنتهى غايته، ويترتب على ذلك انصرافه عن آخرته التي هي العاقبة والدوام والقرار.

وليس معنى ذلك أنني أدعو إلى تطليق الدنيا طلاقًا بلا رجعة، وأن نهمل قضاياها ونعتكف على العبادة حتى يأتينا الموت الذي ينقلنا إلى دار القرار.

وإنما العاقل من يتخذ منها سبيلًا مريحًا جميلًا إلى دار قراره؛ فالله – تعالى – لم يحرم طيباتها ولم يصرف عباده عنها، وإنما أهداها إليهم جميلة ذات زرع وجنات وجعل لهم فيها معايش وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، وأمرهم بالسلام والجنوح إليه.

وأهم ما يغتر بها الإنسان في الدنيا المال؛ وقد أعطانا الله تعالى نموذجا لمن غره ماله وهو قارون الذي غره ماله فكفر وكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره

مسيضيع ماله الأرض ولم ينصره ذلك المال الذي غره ولا فئة من أنصاره الذين اتبعوه لماله، وندم الذين تمنوا أن يكونوا لهم مثل الذي كان له لما رأوا تلك النتيجة.

قال الله تعالى في سورة القصص

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢) تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾.

قال ابن كثير في البداية والنهاية:

قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو بن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وكذا قال: إبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحرث بن

نوفل، وسماك بن حرب، وقتادة، ومالك بن دينار، وابن جريج، وزاد فقال: هو قارون بن يصهر بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث.

قال ابن جريج: وهذا قول أكثر أهل العلم، أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى.

قال قتادة: وكان يسمى المنور، لحسن صوته بالتوراة. ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبرًا طولًا ترفعًا على قومه، وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد.

وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلًا، فالله أعلم. وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تفرح أي: لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة، فإنه خير وأبقى، ومع هذا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولا تسيء إليهم، ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم، فيعاقبك ويسلبك ما وهبك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن الله إنما أعطاني هذا، لعلمه أني أستحقه، وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالى ردًّا عليه ما ذهب إليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم، من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولادا، فلو كان ما قال صحيحًا لم نعاقب أحدًا ممن كان أكثر مالًا منه، ولم يكن ماله دليلًا على محبتنا له واعتنائنا به. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم، فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرًا في الباطن، منافقًا في الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا (التفسير)، ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ذكر كثير من المفسرين: أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس، ومراكب، وخدم، وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح، الزهاد قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى، وأجل وأعلى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة، وهذه الهمة السامية، إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية، إلا من هدى الله قلبه، وثبت فؤاده، وأيد لبه، وحقق مراده، وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾. لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها، وفخره على قومه بها، قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

كما روى البخاري، من حديث الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال:

«بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد، عن سالم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه.

وقد ذكر ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالًا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس إنك فعلت بي كذا وكذا.

المرور و... فارعد من ... ثم أقبل عليها

فيقال: إنها قالت له ذلك، فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه، فعند ذلك خر موسى لله ساجدًا، ودعا الله على قارون، فأوحى الله إليه أني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته، مر بجحفله، وبغاله، وملابسه على مجلس موسى عليه السلام، وهو يذكر قومه بأيام الله.

فلما رآه الناس، انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعا موسى عليه السلام، فقال له: ما حملك على هذا؟

فقال: يا موسى أما لئن كنت فضِّلت عليَّ بالنبوة، فلقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي، و لأدعُوَن عليك.

فخرج، وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟

قال: أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب في موسى.

فقال موسى: أدعو؟

قال: نعم.

فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطغى اليوم، فأوحى الله إليه إني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض.

وقد روي عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة، وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا إسرائيليات كثيرة أضربنا عنها صفحًا، وتركناها قصدًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝﴾.

ولما حل به ما حل من الخسف، وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتي، وشكروا الله تعالى الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقد تكلمنا على لفظ ويكأن في التفسير، وقد قال قتادة: ويكأن بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم.

ثم أخبر تعالى أن الدار الآخرة - وهي دار القرار - وهي الدار التي يغبط من أعطيها، ويعزى من حرمها، إنما هي سعدة للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فالعلو هو: التكبر، والفخر، والأشر، والبطر، والفساد: هو عمل المعاصي اللازمة، والمتعدية من أخذ أموال الناس، وإفساد معايشهم، والإساءة إليهم، وعدم النصح لهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقصة قارون هذه، قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة:

يا دارا عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

والله أعلم. وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير آية من القرآن قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝﴾.

وقال - تعالى - في سورة العنكبوت، بعد ذكر عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذي أغرق: فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصدفي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال:

«من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف». انفرد به أحمد رحمه الله.

* **ليس كل غنيٍّ مغرورًا**

وليس كل غني مغرورًا، وليس كل صاحب كنوز قارون، فالإنسان يطغيه المال والمؤمن يزيده المال شكرًا لمن أنعم عليه به عز وجل.

فإن قيل: أوليس المؤمن إنسانًا؟

فالجواب: بلى.

ولكن هذبه إيمانه فأخرجه من بني جنسه المفطور على الطمع والجشع وحب المال.

فسليمان - عليه السلام - كان أغنى الناس، وزاده المال شكرًا فذبح وأطعم وحين رأى عرش الملكة مستقرًا عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر!

وأحد الصحابة كان له بستان عظيم، لم يجد الطير له مكانًا يمر به بين أشجاره، وقد شغله منظره وهو في صلاته فذهب إلى النبي ﷺ وحكى له القصة وقال له: هذا البستان في سبيل الله.

يقول الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾. ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان، ولفظ الإنسان هنا عام، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغني ولا يطغى، فيكون هذا من العام المخصوص، ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها، ففي نفس الآية ما يفيده قوله تعالى: أن رآه، أي: إن رأى الإنسان نفسه، وقد يكون رأيا واهما ويكون الحقيقة خلاف ذلك، ومع ذلك يطغى، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان.

ولذا جاء في السنة ذم العائل المتكبر؛ لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى، فهو معني في نفسه لا بسبب غناه.

أما من خارج الآية، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان، وكما في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا﴾.

[illegible] ومغرور به إلى من لم يجاوز الحياة الدنيا، ولم يحسب أن ماله أخلده، فلن يطغيه ماله ولا طغيانه كما جاء في قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بني إسرائيل.

وقد سجل القرآن أجل أوسع غنى في الدنيا في نبي الله سليمان، آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ومع هذا قال: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾.

وقصة الصحابي الموجودة في الموطأ: لما شغل ببستانه في الصلاة، حين رأى الطائر لا يجد مرجة من الأغصان، يخذ منه، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله، إني فتنت ببستاني في صلاتي، فهو في سبيل الله» فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان، ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. وأنه لا يبقى منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وكذلك قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، وقال ثالث الثلاثة من بني إسرائيل: «إنما ورثته كابرا عن كابر» بخلاف المسلم، إلى آخره.

فلا يزيده غناه إلا تواضعا وشكرا للنعمة، كما قال نبي الله سليمان: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝﴾، وقد نص في نفس السورة أنه شكر الله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وفي العموم قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقد كان في أصحاب رسول الله ﷺ من أصحاب المال الوفير فلم يزدهم إلا قربا لله، كعثمان بن عفان رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف، وأمثالهم، وفي الآية ربط لطيف بأول السورة، إذا كان خلق الإنسان من علق، وهي أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه، فإذا بها مضغة ثم عظام، ثم تكسى لحما، ثم تنشأ خلقا آخر، ثم يأتي إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء، فيجري الله له نهرين من لبن أمه، ثم ينبت له الأسنان، ويفتق له الأمعاء، ثم يشب ويصير غلاما يافعا، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية، فإذا هو ينسى كل ما تقدم، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع الله خالقه ورازقه، كما رد عليه تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ومما في الآية من لطف التعبير قوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، أي أن الطغيان الذي وقع فيه عن وهم، تراءى له أنه استغنى سواء بماله أو بقوته؛ لأن حقيقة المال ولو كان جبالا، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق.

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه.

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس، أن الغني الشاكر أعظم من الفقير الصابر؛ لأن الغنى موجب للطغيان.

وقد قال بعض الناس: الصبر على العافية، أشد من الصبر على الحاجة.

والغني الشاكر هيهات أن يكون مغرورًا، لأنه لو غره ماله لما أخرج منه شيئًا لمسكين ولا لغيره.

والخلاصة أن المال سبب للغرور والطغيان والظلم والعدوان إذا ملك الإنسان واستقر في سويداء قلبه وصار شاغله من ألفه إلى يائه، و همه الصغير والكبير، لا يعنيه من أين يكتسبه.

وهو هو الذي يكون سببًا في سخاء مالكه الذي يشكر الله تعالى أن أعطاه إياه وآتاه من فضله فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا يبتغي الآخرة التي هي عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار.

* لا يغرنك كثرة المال

ومن الناس من يغتر بكثرة ماله فينفق ولا يبالي وهو لا يدري عواقب الليالي، ولا مفاجآت الزمن الذي يأتيه بها بغتة، ومن قديم قال الناس: إنك إن تأخذ من التل يختل، والكحل تضعه المرأة في وعاء وهي لا تأخذ منه إلا شيئًا لا يذكر ومع ذلك يفنى.

وخير سبيل للتعامل مع المال الاعتدال، لقول الله تعالى في آية الإسراء: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ يقول ابن كثير:

يقول تعالى آمرا بالاقتصاد في العيش ذاما للبخل ناهيا عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلا منوعا لا تعطي أحدا شيئا كما قالت اليهود عليهم لعائن الله ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي نسبوه إلى البخل تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوما محسورا.

وهذا من باب اللف والنشر أي فتقعد إن بخلت ملوما يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا فإنها تسمى الحسير وهو مأخوذ من الكلال كما قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ أي كليل عن أن يرى عيبًا هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو: وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع».

هذا لفظ البخاري في الزكاة.

وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك ولا توكي فيوكي الله عليك» وفي لفظ: «ولا تحصي فيحصي الله عليك».

وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك».

وفي الصحيحين من طريق معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا

وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا».

وروى مسلم عن قتيبة عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا: «ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله» وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر عن أبي معاوية عن الأعمش عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيي سبعين شيطانًا» وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا سكين بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عالَ من اقتصد».

وما عال: أي ما افتقر، والفقر بغيض وهو آفة ولطالما استعاذ منه النبي ﷺ، والنبي ﷺ لا يستعيذ من شيء إلا إذا كان هذا الشيء شرًا.

* لا تغرنك قوة صحتك

والصحة من مظاهر الاستمتاع بالدنيا واسأل عن ذلك المرضى الذين يجدون عناء في التقاط النفس، ولا يتحركون إلا بمعين من الناس والعصي.

ترك الشهاب الخفاجي خاله العلامة أبا بكر الشنواني بعافية وصحة ممتازة فلما سافر وأبعد أرسل رسالة إلى خاله وسأله فيها عن حاله فرد عليه قائلا: أصبحت غير ممتع بطعام ومعين (ماء) فقد صرت لا أمشي إلا متكئا على عصا ومُعين.

وفي البخاري: زار النبي ﷺ رجلًا مريضًا فوجده من الضعف صار مثل الفرخ.

والله عز وجل يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾.

يقول الطبري في تفسيره:

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ يَقُول تَعَالَى ذِكْره لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْش، مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ الْقَادِر عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا يَشَاء: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾ أَيهَا النَّاس ﴿ مِّن ضَعْفٍ ﴾ يَقُول: مِنْ نُطْفَة وَمَاء مَهِين، فَأَنْشَأَكُمْ بَشَرًا سَوِيًّا ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يَقُول: ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ قُوَّة عَلَى التَّصَرُّف، مِنْ بَعْد خَلْقه إِيَّاكُمْ مِنْ ضَعْف، وَمِنْ بَعْد ضَعْفكُمْ، بِالصِّغَرِ وَالطُّفُولَة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ يَقُول: ثُمَّ أَحْدَثَ لَكُمْ الضَّعْف بِالْهَرَمِ وَالْكِبَر عَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَقْوِيَاء فِي شَبَابكُمْ وَشَيْبَة. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل. ذِكْر مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا بِشْر، قَالَ: حدثنَا يَزِيد، قَالَ: حدثنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، قَوْله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ أَيْ مِنْ نُطْفَة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ الْهَرَم ﴿ وَشَيْبَةً ﴾ الشَّمَط. وَقَوْله: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ يَقُول تَعَالَى ذِكْره: يَخْلُق مَا يَشَاء مِنْ ضَعْف وَقُوَّة وَشَبَاب وَشَيْب ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِتَدْبِيرِ خَلْقه ﴿ ٱلْقَدِيرُ ﴾ عَلَى مَا يَشَاء، لَا يَمْتَنِع عَلَيْهِ شَيْء أَرَادَهُ، فَكَمَا فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاء، فَكَذَلِكَ يُمِيت خَلْقه وَيُحْيِيهِمْ إِذَا شَاءَ. يَقُول: وَاعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَال بِقُدْرَتِهِ يُحْيِي الْمَوْتَى إِذَا شَاءَ. الْقَوْل فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ يَقُول تَعَالَى ذِكْره

هؤلاء المكذبين بالبعث من مشركي قريش، محتجا عليهم بأنه القادر على ذلك وعلى ما يشاء: ﴿الله الذي خلقكم﴾ أيها الناس ﴿من ضعف﴾ يقول: من نطفة وماء مهين، فأنشأكم بشرا سويا ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ يقول: ثم جعل لكم قوة على التصرف، من بعد خلقه إياكم من ضعف، ومن بعد ضعفكم، بالصغر والطفولة ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ يقول: ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر عما كنتم عليه أقوياء في شبابكم وشيبة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿الذي خلقكم من ضعف﴾ أي من نطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا﴾ الهرم ﴿وشيبة﴾ الشمط. وقوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ يقول تعالى ذكره: يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيب ﴿وهو العليم﴾ بتدبير خلقه ﴿القدير ⑭﴾ على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيء أراده، فكما فعل هذه الأشياء، فكذلك يميت خلقه ويحييهم إذا شاء. يقول: واعلموا أن الذي فعل هذه الأفعال بقدرته يحيي الموتى إذا شاء.

ومن ثم أقول لكل شاب مغرور بقوة شبابه: انظر إلى أضعف شيخ تراه لقد كان في يوم أشد منك قوة في شبابه، لكنها سنة الأيام يا ولدي وكلمة الزمن المستقاة من كلمة الله تعالى وهي لا تختلف فلن ﴿تجد لسنة الله تبديلا﴾ ولن تجد لسنته تعالى تحويلا.

وقد قال من هو خير منك ومنه: ﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا﴾.

فلا تغتر بقوتك فتطيح بالضعفاء، واعمل لشيبتك قبل أن يسافر شبابك، وتناديه قائلا كما قال الأول:

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وقد فعل المشيب كل شيء مشين من ضعف القوى والنظر وقلة النوم وكثرة السعال.

جاء في البيان والتبيين للجاحظ:

قدم الهيثم بن الأسود بن العريان على عبد الملك بن مروان فقال: كيف تجدك؟ قال: أجدني قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسود واسود مني ما كنت أحب أن يبيض واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ولان مني ما كنت أحب أن يشتد ثم أنشد:

اسمع أنبئك بآيات الكبر ... نوم العشا وسعال بالسحر

وقلة النوم إذا الليل اعتكر ... وقلة الطعم إذا الزاد حضر

وسرعة الطرف وتحميج النظر ... وتركي الحسناء من قبل الطهر

وحذرا أزداده إلى حذر ... والناس يبلون كما يبلى الشجر

* لا يغرنك البنون

من قديم أحب الناس البنين و وأد بعضهم البنات يرون أن البنين حماية للدار ونفع في السفر والترحال وعتاد للزمن وتغير الأحوال بخلاف البنات اللائي نجدتهن صراخ وبرّهن سرقة أي يسرقن أزواجهن برًّا بآبائهن قبل أن يكون للبنت شهادة ووظيفة ومال وفير.

وما زال حب البنين قائما والاعتزاز بهم كاعتزاز المرء بماله يشجعونه على الظلم ويتباهى بهم بين الناس

وقد صرح القرآن الكريم بأن المال والبنين زينة الحياة الدنيا لكن قال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا

المؤمن يرى الباقي غير مغتر بالزائل، وقد يربي الرجل ولده حتى يصبح شابًا لكن لا تمهله المنية كي يحقق لمن رباه مبتغاه.

جاء في تفسير ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، وقال في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾. وفي الحديث الصحيح: (الدنيا خضرة حلوة). وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن «الباقيات الصالحات» ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر،

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة. وفي الحديث: (أما أنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات) «أخرجه الإمام أحمد في المسند». وقال ابن عباس قوله {والباقيات الصالحات} قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض، وعنه: هي الكلام الطيب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وأنا مع عبد الرحمن بن زيد في أن معنى الباقيات الصالحات الأعمال الصالحة كلها.

ولن يعملها مغترّ ببنيه أو بماله، وإنما يعملها من رأى الدنيا كما صورها له من أنشأها من عدم، زرعًا نبت بعد ماء ثم صار آخر الأمر حطامًا قصة جميلة لكنها انتهت، وموسما أخضر لكنه لم يثمر، وسحابة صيف لكنها لم تمطر، إنها فقط لمن ظلم فغفر وابتلي فصبر واغتنى فشكر.

### * لا تغرنك الكراسي والمناصب

ولا تغرنك الكراسي والمناصب فمصيرها إلى الزوال شأنها في ذلك شأن كل عرض في الحياة الدنيا.

ويكفيك أن تعرف حديث البرامكة الذين بلغوا من المجد والكراسي ما بلغوا والترف والنعيم ما يربو على الوصف والبيان وقد ذهب ملكهم وماتوا جميعا في غياهب السجون واحدًا تلو الآخر.

وقد ذكر الذهبي رحمه الله أن أحدهم دنا من أبيه في السجن وسأله عن هذا المصير السيئ فأجابه:

بدعوة مظلوم نسيناها ولكن الله – تعالى – لم ينسها

وصاغ قصتهم د. راغب السرجاني فقال:

يرجع أصل أسرة البرامكة إلى جدهم الأول برمك المجوسي، وكان من سدنة بيت النار وخدامه الكبار، ولا يذكر له إسلامًا، وترتيب هذه الأسرة كما يلي:

- برمك المجوسي.
- خالد بن برمك وهو من دعاة الدولة العباسية، وتولى الوزارة في عهد السفاح.
- يحيى بن خالد البرمكي وهو أشهر شخصية في الأسرة، ووزير هارون الرشيد وأبوه في الرضاعة.
- الفضل بن يحيى، خليفة أبيه والقائد الكبير.
- جعفر بن يحيى، نديم الرشيد وسبب النكبة.
- موسى بن يحيى، القائد الحربي، أشجعهم على الإطلاق.
- محمد بن يحيى، ليس له كبير ذكر، ولكنه من أسباب النكبة.

* فضل البرامكة

لقد كانت أسرة البرامكة غرة على جبين الدولة العباسية، لما كان لهم من المآثر والفضائل والسخاء الشديد، والأعمال العظيمة في الدولة، وخاصة أيام الرشيد؛ فالأب يحيى بن خالد كان المسئول عن تربية الرشيد، وزوجته أرضعت هارون الرشيد، وهو الذي حافظ لهارون على ولاية العهد عندما هم الخليفة الهادي بخلع أخيه الرشيد، وهو الذي قام على أمر وزارة الرشيد أفضل قيام حتى فوض الخليفة الرشيد له كل الأمور، أما ابنه الفضل - وكان أكبر أخوته - كان أخو الرشيد في الرضاعة والمسئول عن تربية الأمين ابن الرشيد، واستطاع أن يقضي على فتنة يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم، وولي خراسان وغيرهما، واتخذ من جندها جيشًا كبيرًا تعداده 50 ألف جندي، جعل ولاءهم له مباشرة، وساهم العباسية..

أما جعفر سبب النكبة فهو نديم الرشيد وخليله في المجالس، وله من الأعمال الكبيرة أيضًا؛ فهو الذي قضى على العصبية القبلية في الشام سنة 180 هـ ثم جعل له ولاية خراسان والشام ومصر، وجعله مسئولًا عن تربية ابنه

المأمون. أما موسى الأخ الثالث فكان كل همه القتال والغزو بحكم شجاعته الفائقة، وتولى أمر الشام سنة 186هـ وكانت هذه الشجاعة أحد أسباب نكبتهم؛ حيث غار منه بعض القواد الآخرين وسعوا فيه عند الرشيد.

أما محمد الأخ الرابع فليس له ذكر معلوم في التاريخ، إلا أنه كان بعيد الهمة، ودوره في هذه الفترة يحيطه الغموض.

* نكبة البرامكة

اختلف المؤرخون فيما بينهم في السبب الذي دفع الرشيد بالتخلص من الأسرة البرمكية على الرغم من أعمالهم العظيمة، واختلقت روايات كاذبة عن

ذلك، أجمع المحققون على بطلانها، أمثال قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر، ولكن نستطيع أن نلخص من خلال الروايات التاريخية المحققة الأسباب التي أدت بالبرامكة لهذه النهاية الأليمة في الآتي:

**أولًا: حادثة يحيى بن عبد الله الطالبي**

الذي خرج إلى بلاد الديلم ودعا لنفسه هناك، وبايعه كثير من الناس، وقويت شوكته، وذلك سنة 176 هـ فأرسل إليه الرشيد الفضل بن يحيى، واستطاع الفضل أن يستنزل يحيى بالسلام على أمان له عند الرشيد، وذلك من غير أن تراق نقطة دم، وعد ذلك من أفضل أعمال الفضل، وبعد فترة ظهر من يحيى ما أوجب عند الرشيد نقض الأمان، فأمر بحبسه عند جعفر بن يحيى، وفي ذات ليلة اجتمع يحيى مع جعفر، وما زال به حتى أطلقه جعفر وزوده بالمال اللازم لخروجه من بغداد، فوصل الخبر للرشيد، وكان ذلك يعد خيانة عظمى عند العباسيين لشدة خوفهم من الطالبيين، فخاف الرشيد من تآمر آل برمك مع الطالبيين من أجل إقصاء العباسيين، فأمر بقتل جعفر وحبس باقي الأسرة.

**ثانيًا: الترف الشديد**

كان البرامكة يعيشون في ترف شديد جدًّا، حتى أنهم كانوا يبنون قصورهم ويضعون على الحوائط بلاط الذهب والفضة، وبني جعفر بيتًا له كلفه عشرين مليون درهم، وكان الرشيد في سفر ذات يوم، فلم يمر على قصر ولا إقليم ولا قرية إلا قيل له: هذا لجعفر، وعندما عاد الفضل من حربه في الديلم أطلق لمادحيه ثلاثة ملايين درهم. وهذا السرف جعل الرشيد يتابعهم في الدواوين والكتابات، فاكتشف وجود خلل كبير في مصاريف الدولة.

ثالثًا: الفضل بن الربيع

وكان من موالي العباسيين، وكان شديد العداء للبرامكة، ويقال إنه هو الذي سعى بهم عند الرشيد، وأظهر عيوبهم، وغطى محاسنهم، ووضع عليهم العيون، حتى استطاع أن يرصد حادثة هروب يحيى الطالبي عند جعفر، فأخبر بها الرشيد، وزين له أن البرامكة يريدون الخلافة للطابيين.

رابعًا: أصل البرامكة

حاول بعض المؤرخين الربط بين أصل البرامكة وهم مجوس، وبين ما حدث لهم على يد الرشيد، فيما أنهم حاولوا إظهار الزندقة، وإعادة دين المجوس مرة أخرى، وأنهم أدخلوا النار في الكعبة حتى تعبد هناك، والذي ساعد على ترويج هذه الفكرة مصاحبة جعفر بن يحيى لبعض الزنادقة أمثال أنس بن أبي شيخ الذي قتله هارون الرشيد بيده، ولكن هذا السبب بعيد المأخذ، ولا دليل عليه.

خامسًا: جيش البرامكة

ولعل هذا السبب هو الأوضح والأقوى مع حادثة يحيى الطالبي، وأصل هذا الجيش كما ذكرنا كونه الفضل بن يحيى من جند خراسان [وتلك البلاد معروفة تاريخيًّا بولائها للعباسيين، ولكن ميلهم أكثر للطالبيين وآل البيت]، وتعداده خمسين ألفًا جعل ولاءه له مباشرة دون غيره، ثم استقدم منهم عشرين ألفًا لبغداد وسماهم «الكرنبية» مما حرك هواجس الرشيد، غير أنه لم يتحرك حتى جاءه خبر من والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان أن السبب في اضطراب خراسان هو موسى بن يحيى من بغداد، فتحقق الظن عند الرشيد.

اجتمعت عند هارون الرشيد كل ما سبق من الأسباب، وعندها قرر الرشيد عند رجوعه من الحج، وفي آخر ليلة من المحرم سنة 187 هـ بالإيقاع بالبرامكة، فأمر بقتل جعفر وصلبه على جسر بغداد، وحبس باقي البرامكة في السجون،

والاستيلاء على أموالهم وقصورهم وكل ما لديهم، وساموهم في السجن سوء العذاب، وتبدل نعيمهم بؤسًا، وماتوا واحدًا تلو الآخر في السجون.

ولقد ظهر من يحيى بن خالد البرمكي صبر عظيم ورضا بقضاء الله وقدره، ومن عجيب ما يذكر في أسباب هذه الحادثة أن يحيى بن خالد كان يحج ذات مرة، فوقف عند باب الكعبة، ودعا قائلًا: «اللهمَّ إنْ كَانَ يرضيك عني سلب جميع مالي وولدي وأهلي فافعل ذلك وَأَبْقِ عَلَيَّ مِنْهُمُ الْفَضْلَ»، ثُمَّ خَرَجَ، فما بلغ الباب حتى رجع وسأل الله الجميع من واسع فضله.

وغير بعيد رأينا ورأى الناس حكّامًا أعدموا شنقا، وآخرين سجنوا وحوكموا ورأيناهم في قفص الاتهام الضيق، وقد كانت الدنيا تحتهم وحسبوا أنفسهم وحسبهم بعض الناس فوق الأنام.

* لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد

ولا يغرن مسلمًا ما يراه من تقلب الذين كفروا في البلاد متعة وترفيها لأن عاقبة هؤلاء النار، ولا خير في خير بعده النار ولا شر في شر بعده الجنة.

قال تعالى في خواتيم آل عمران: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

يقول ابن كثير:

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝﴾، أي: قليلا وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝﴾.

وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا﴾أي: ضيافة من عند الله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ۝﴾.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن نصر أخبرنا أبو طاهر سهل بن عبد الله، أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سعيد بن يحيى، أنبأنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن محارب بن دثار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقا، كذلك لولدك عليك حق».

كذا رواه ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن جناب، حدثنا عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال: إنما سماهم الله أبرارا لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقا، كذلك لولدك عليك حق، وهذا أشبه، والله أعلم.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، عن رجل، عن الحسن قال: الأبرار الذين لا يؤذون الذر.

وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خيثمة، عن الأسود قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها، لئن كان برا لقد قال الله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وكذا رواه عبد الرزاق، عن الأعمش، عن الثوري، به، وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر، عن فرج بن فضالة، عن لقمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ويقول:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وأقول: لا يعني هذا أن يقف المسلمون عاجزين فقراء يقولون: هؤلاء كفرة فجرة مصيرهم النار فلا نغتر بما وصلوا إليه من ترف الحياة الدنيا ونعيمها، وإنما عليهم أن يعملوا ويجدّوا ويطلبوا الدنيا بمعطيات طلبها، فهي أمامهم كما أنها أمام غيرهم، بل عليهم أن يندموا على ما فرّطوا فيه واجتهد فيه غيرهم حتى غزوا الآفاق، واخترعوا الدواء، واكتشفوا الأعاجيب من التقنيات التي بتنا مستهلكين لها لا مبتكرين إياها، وهم في هذا الطريق لا يغرهم من سبق ظاهره بمال وترف وهو مغموس

وقد جاء في سورة الزخرف قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

أي: حتى لا يكون الناس جميعًا أمة واحدة كافرة جعل الله في الكافرين فقراء وأغنياء كما جعل في المؤمنين فقراء وأغنياء.

يقول الطبري:

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يقول - تعالى ذكره-: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً﴾: جماعة واحدة.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى الذي لم يؤمن اجتماعهم عليه، لو فعل ما قال - جل ثناؤه - وما به لم يفعله من أجله، فقال بعضهم: ذلك اجتماعهم على الكفر. وقال: معنى الكلام: ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر، فيصير جميعهم كفارا ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾.

ذكر من قال ذلك:

حدثني علي قال: حدثنا أبو صالح قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول الله سبحانه: لو لا أن أجعل الناس كلهم كفارا، لجعلت للكفار لبيوتهم سقفا من فضة.

حدثنا ابن بشار قال: حدثنا هوذة بن خليفة قال: حدثنا عوف، عن الحسن، في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال: لو لا أن يكون الناس كفارا أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله.

حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي كفارا كلهم.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال: لو لا أن يكون الناس كفارا.

حدثنا محمد قال: حدثنا أحمد قال. حدثنا أسباط، عن السدي ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: كفارا على دين واحد.

وقال آخرون: اجتماعهم على طلب الدنيا وترك طلب الآخرة. وقال: معنى الكلام: ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة على طلب الدنيا ورفض الآخرة.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال: لو لا أن يختار الناس دنياهم على دينهم، لجعلنا هذا لأهل الكفر.

وقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ يقول - تعالى ذكره -: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن فى الدنيا سقفا، يعني أعالي بيوتهم، وهي السطوح فضة

كما حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ السقف: أعلى البيوت.

واختلف أهل العربية في تكرير اللام التي في قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ وفي قوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾، فكان بعض نحويي البصرة يزعم أنها أدخلت في البيوت على البدل. وكان بعض نحويي الكوفة يقول: إن شئت جعلتها في ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ مكررة، كما في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ

﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ وإن شئت جعلت اللامين مختلفتين، كأن الثانية في معنى على، كأنه قال: جعلنا لهم على بيوتهم سقفا. قال: وتقول العرب للرجل في وجهه: جعلت لك لقومك الأعطية: أي جعلته من أجلك لهم.

واختلفت القراء في قراءة قوله: «سقفا» فقرأته عامة قراء أهل مكة وبعض المدنيين وعامة البصريين (سقفا) بفتح السين وسكون القاف اعتبارا منهم ذلك بقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وتوجيها منهم ذلك إلى أنه بلفظ واحد معناه الجمع. وقرأه بعض قراء المدينة وعامة قراء الكوفة (سقفا) بضم السين والقاف، ووجهوها إلى أنها جمع سقيفة أو سقوف. وإذا وجهت إلى أنها جمع سقوف كانت جمع الجمع، لأن السقوف: جمع سقف، ثم تجمع السقوف سقفا، فيكون ذلك نظير قراءة من قرأه «فرهن مقبوضة» بضم الراء والهاء، وهي الجمع، واحدها رهان ورهون، وواحد الرهون والرهان: رهن.

وكذلك قراءة من قرأ «كلوا من ثمره» بضم الثاء والميم، ونظير قول الراجز:

حتى إذا ابتلت حلاقيم الحلق.

وقد زعم بعضهم أن السقف بضم السين والقاف جمع سقف، والرهن بضم الراء والهاء جمع رهن، فأغفل وجه الصواب في ذلك، وذلك أنه غير موجود في كلام العرب اسم على تقدير فعل بفتح الفاء وسكون العين مجموعا على فعل، فيجعل السقف والرهن مثله.

والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان متقاربتا المعنى، معروفتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾ يقول: ومراقي ودرجا عليها يصعدون، فيظهرون على السقف والمعارج: هي الدرج نفسها، كما قال المثنى بن جندل:

يا رب، رب البيت ذي المعارج

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني علي قال: ثنا أبو صالح قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس (ومعارج) قال: معارج من فضة، وهي درج.

حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: أي درجا عليها يصعدون.

حدثنا محمد قال: حدثنا أحمد قال: حدثنا أسباط، عن السدي ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: المعارج: المراقي.

حدثنا محمد قال: حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: درج عليها يرفعون.

حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: درج عليها يصعدون إلى الغرف.

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ قال: المعارج: درج من فضة.

ولن ينتبه إلى ذلك إلا من كان له قلب، يتأمله ولا ينظر فقط إلى أغنيائهم فيفتن، وما فتنه إلا الغرور.

* النهي حتى عن الإعجاب

والله – تعالى – يقول في سورة التوبة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

نهانا حتى عن مجرد الإعجاب بما نراه عند الكافرين والمنافقين من أموال وأولاد، يقول البغوي في تفسيره:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ وَالْإِعْجَابُ هُوَ السُّرُورُ بِمَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ، يَقُولُ: لَا تَسْتَحْسِنُ مَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مِنَ اللهِ فِي اسْتِدْرَاجٍ كَثَّرَ اللهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَإِنْ قِيلَ: أَيُّ تَعْذِيبٍ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

قِيلَ: قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: التَّعْذِيبُ بِالْمَصَائِبِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: يُعَذِّبُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا بِأَخْذِ الزَّكَاةِ مِنْهَا وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَقِيلَ: يُعَذِّبُهُمْ بِالتَّعَبِ فِي جَمْعِهِ، وَالْوَجَلِ فِي حِفْظِهِ، وَالْكُرْهِ فِي إِنْفَاقِهِ، وَالْحَسْرَةِ عَلَى تَخْلِيفِهِ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ، ثُمَّ يُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ لَا يَعْذِرُهُ. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أَيْ: تَخْرُجَ، ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أَيْ: يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ.

فالنظر إلى العاقبة سبيل التخلص من هذا الغرور البغيض.

## * لا يغرنك جمال تحته كفر

الجمال مرغوب فيه بلا شك ولكن لا تغتر بجميلة كافرة وإن خيرت بينها وبين سوداء دميمة ولكنها مؤمنة آثرت الثانية على الأولى.

ولا تغتري بجمال رجل وقلبه مشرك وإن كنت مخيرة بينه وبين عبد أسود لكنه مؤمن اخترت الثاني وآثرته على الأول كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

يقول البغوي:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ سبب نزول هذه الآية أن أبا مرثد الغنوي بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته في الجاهلية فأتته وقالت: يا أبا مرثد ألا تخلو؟ فقال لها ويحك يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك قالت: فهل لك أن تتزوج بي؟ قال نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستأمره فقالت أبي تتبرم؟ ثم استغاثت عليه فضربوه ضربا شديدا ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه بالذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي بسببها وقال: يا رسول الله أيحل لي أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ وقيل: الآية منسوخة في حق الكتابيات بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لا ينكر إلا نبوة محمد ﷺ؟ قال أبو الحسن بن فارس: لأن من يقول: القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غيره وقال قتادة وسعيد بن جبير: أراد بالمشركات الوثنيات فإن عثمان رضي الله عنه تزوج نائلة بنت فرافصة وكانت نصرانية فأسلمت تحته وتزوج طلحة بن عبد الله نصرانية وتزوج حذيفة يهودية [فكتب إليه عمر رضي الله عنه خل سبيلها. فكتب إليه أتزعم أنها حرام؟ فقال:
لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن].

قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بجمالها ومالها، نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة: يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوجها وقال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها ولطمها ثم فزع فأتى النبي ﷺ وأخبره بذلك فقال له ﷺ: وما هي يا عبد الله؟ قال: هي تشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي فقال: «هذه مؤمنة» قال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق نبيا لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل ذلك فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: أتنكح أمة؟ وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ هذا إجماع: لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى الأعمال الموجبة للنار ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بقضائه وإرادته ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي أوامره ونواهيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

وقس على ذلك جيلة مفرطة أو جيل مفرط في دين الله،لا يغرنك حسنها وجماله!

فوراء هذا الحسن همّ لست تطيقه وضلال لن تتحمله ومعاناة لا يتسع لها صدرك.

وكم من مصرّ على جمال لم ير خيره فلما عاشره ذاق وبال أمره.

* لا يغرنك حلو الكلام

ولطالما غرنا حلو الكلام وهو كما قال النبي ﷺ سحر:(إن من البيان لسحرا) وزعمنا صدق من حلا لسانه ولم نعرف أنه بحر من المر متلاطم الأمواج حتى ظهر لنا شره.

الا ترى إلى قول ربنا تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

يقول البغوي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الكلبي ومقاتل وعطاء: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وسمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله ﷺ وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتي رسول الله ﷺ فيجالسه ويظهر الإسلام ويقول إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان منافقا فكان رسول الله ﷺ يدني مجلسه فنزل قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تستحسنه ويعظم في قلبك ويقال في الاستحسان أعجبني كذا وفي الكراهية والإنكار عجبت من كذا ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى

قلبه﴾ يعني قول المنافق والله إني بك مؤمن ولك محب ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة يقال لددت يا هذا وأنت تلد لدا ولدادة فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت لده يلده لدا، يقال رجل ألد وامرأة لداء وقوم لد قال الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾. قال الزجاج: اشتقاقه من لديدي العنق وهما صفحتاه، وتأويله أنه في أي وجه أخذ من يمين أو شمال في أبواب الخصومة غلب والخصام مصدر خاصمه خصاما ومخاصمة قاله أبو عبيدة: وقال الزجاج: هو جمع خصم يقال: خصم وخصام وخصوم مثل بحر وبحار وبحور قال الحسن: ألد الخصام أي كاذب القول قال قتادة: شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله – تعالى – الألد الخصم».

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي أدبر وأعرض عنك ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ أي عمل فيها وقيل: سار فيها ومشى ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ قال ابن جريج قطع الرحم وسفك دماء المسلمين ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم.

قال مقاتل: خرج إلى الطائف مقتضيا مالا له على غريم فأحرق له كدسا وعقر له أتانا والنسل: نسل كل دابة والناس منهم وقال الضحاك: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي ملك الأمر وصار واليا ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: في قوله عز وجل ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ قال إذا ولي فعمل بالعدوان والظلم أمسك الله

المطر وأهلك الحرث والنسل ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي لا يرضى بالفساد قال سعيد بن المسيب: قطع الدرهم من الفساد في الأرض.

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي خف الله ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي حملته العزة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم أي بالظلم والعزة التكبر والمنعة وقيل معناه ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ للإثم الذي في قلبه فأقام الباء مقام اللام.

قوله ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي كافيه ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي الفراش، قال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال: للعبد اتق الله فيقول: عليك بنفسك.

وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعا لله عز وجل.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنات يقول ربنا تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي بلا كلام معسول تحته بحر من المر وبلا أناشيد فارغة خالية من محتواها ومقتضاها كما كان من خبيب الرومي الذي قتله الكفار غدرًا وصهيب الرومي الذي أرشد الكفار إلى ماله ليتركوه كي يلحق برسول الله ﷺ.

يقول البغوي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي لطلب رضا الله تعالى ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ روي عن ابن عباس والضحاك: أن هذه الآية نزلت في سرية الرجيع وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله

ﷺ وهو بالمدينة: إنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفرا من علماء أصحابك يعلموننا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدي الأنصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن بكير وعبد الله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري قال أبو هريرة: بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا فمرت عجوز فأبصرت النوى فرجعت إلى قومها بمكة وقالت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب من أصحاب محمد ﷺ فركب سبعون رجلا منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم قال أبو هريرة رضي الله عنه: ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد فأحاط بهم القوم فقتلوا مرثدا، وخالدا وعبد الله بن طارق ونثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلا من عظماء المشركين ثم قال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحم لحمي آخر النهار ثم أحاط به المشركون فقتلوه فلما قتلوه أرادوا حز رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر فأرسل الله رجلا من الدبر - وهي الزنابير- فحمت عاصما فلم يقدروا عليه فسمي حمي الدبر فقالوا دعوه حتى تمسي فتذهب عنه فنأخذه فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطرا كالعزالي فبعث الله الوادي غديرا فاحتمل عاصما به فذهب به إلى الجنة وحمل خمسين من المشركين إلى النار وكان عاصم قد أعطى الله تعالى عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدبر منعته يقول: عجبا لحفظ الله العبد المؤمن كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع عاصم في حياته.

وأسر المشركون خبيب بن عدي الأنصاري وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما إلى مكة فأما خبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله فاستعار من بنات الحارث موسى ليستحد بها فأعارته فدرج بني لها وهي غافلة فما راع المرأة إلا خبيب قد أجلس الصبي على فخذه والموسى بيده فصاحت المرأة فقال خبيب: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا فقالت المرأة بعد: والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلا رزقا رزقه الله خبيبا ثم إنهم خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فكان خبيب هو أول من سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة فركع ركعتين ثم قال: لولا أن يحسبوا أن ما بي جزع لزدت اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فصلبوه حيًّا فقال اللهم: إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي. ثم قام أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله.

ويقال: كان رجل من المشركين يقال له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال له خبيب: اتق الله فما زاده ذلك إلا عتوا فطعنه،

فانفله وذلك قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ يعني سلامان. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن بمكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدا ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه يصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله النسطاس. فلما بلغ النبي ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه أيكم (ينزل) خبيبا عن خشبته وله الجنة؟ فقال الزبير: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار حتى أتيا التنعيم ليلا وإذا حول الخشبة أربعون رجلا من المشركين نائمون نشاوى، فأنزلاه فإذا هو رطب يتثنى لم يتغير منه شيء بعد أربعين يوما ويده على جراحته وهي تبض دما اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وسارا فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبا فأخبروا قريشا فركب منهم سبعون فلما لحقوهما قذف الزبير خبيبا فابتلعته الأرض فسمي بليع الأرض.

فقال الزبير: ما جرأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال: أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدافعان عن شبليهما فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم فانصرفوا إلى مكة وقدما على رسول الله ﷺ وجبريل عنده فقال يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ حين شريا أنفسهما لإنزال خبيب عن خشبته.

وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم صهيب إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك يا أبا يحيى فقال له صهيب: وبيعك فلا تتحسر قال صهيب: ما ذاك؟ فقال: قد أنزل الله فيك وقرأ عليه هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي ﷺ فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم إني لمن أرماكم رجلا والله لا أضع سهما مما في كنانتي إلا في قلب رجل منكم وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي قالوا: نعم. ففعل ذلك فأنزل الله هذه الآية.

وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقى الكافر فيقول له: قل لا إله إلا الله فيأبى أن يقولها فقال المسلم والله لأشرين نفسي لله. فتقدم فقاتل وحده حتى قتل.

وقيل نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال ابن عباس: أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال: وأنا أشري نفسي لله فقاتله فاقتتل الرجلان لذلك وكان علي إذا قرأ هذه الآية يقول: اقتتلا ورب الكعبة وسمع عمر بن الخطاب إنسانا يقرأ هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فقال عمر (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن بن شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرني حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر.

فكيف يغتر عاقل بحلو الكلام وقد أتاه من الله البيان!

وعرف أن السبيل إلى الحق فعل لا كلام.

* لا يغرنك كثرة الحلف

ولا يغرنك المرء يحلف ويكثر في الحلف كما سبق من الذي أشهد الله على ما في قلبه وكان ألد الخصام.

ففي الناس من يجتهد مقسمًا بالله وبالرسول وبكتاب الله أنه ما فعل وقد فعل وما ذهب وقد ذهب وأنه ليس عنده وعنده فتقول في سرك ما يقوله العوام من الناس: أستغفر الله العظيم آمنت بالله صادق والله صادق وأنا من ظلمت.

عليك بالبينة ولا يغرنك كثرة الحلف قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝﴾.

يقول القرطبي:

يعني الأخنس بن شريق؛ في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق. وقيل: الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود؛ قاله مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ مالا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام. والحلاف: الكثير الحلف.

والمهين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد. ابن عباس: الكذاب. والكذاب مهين. وقيل: المكثار في الشر؛ قاله الحسن وقتادة. وقال الكلبي: المهين الفاجر العاجز. وقيل: معناه الحقير عند الله. وقال ابن شجرة: إنه الذليل. الرماني: المهين الوضيع لإكثاره من القبيح. وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة. وهي هنا القلة في الرأي والتمييز. أو هو فعيل بمعنى مفعل؛ والمعنى مهان.

هماز قال ابن زيد: الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم. واللماز باللسان. وقال الحسن: هو الذي يهمز ناحية في المجلس؛ كقوله تعالى: «همزة». وقيل: الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم. واللماز الذي يذكرهم في مغيبهم؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضا. وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة الذي يغتاب بالغيبة. واللمزة الذي يغتاب في الوجه. وقال مُرة: هما سواء. وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب. ونحوه عن ابن عباس وقتادة. قال الشاعر:

تدلي بود إذا لاقيتني كذبا ... وإن أغب فأنت الهامز اللمزه

مشاء بنميم أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. يقال: نم ينم نما ونميما ونميمة؛ أي يمشي ويسعى بالفساد. وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه بلغه أن رجلا ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام». وقال الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده ... لمولاه إلا سعيه بنميم

قال الفراء: هما لغتان. وقيل: النميم جمع نميمة.

مناع للخير أي للمال أن ينفق في وجوهه. وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته. وقال الحسن: يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا.

معتد؛ أي على الناس في الظلم، متجاوز للحد، صاحب باطل.

أثيم أي ذي إثم، ومعناه أثوم، فهو فعيل بمعنى فعول.

عتل بعد ذلك زنيم العتل الجافي الشديد في كفره. وقال الكلبي والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العَتْل وهو الجر؛ ومنه قوله تعالى: خذوه فاعتلوه. وفي الصحاح: وعتلت الرجل أعتله وأعتله إذا جذبته جذبا عنيفا. ورجل معتل (بالكسر). وقال يصف فرسا: نفرعه فرعا ولسنا نعتله.

قال ابن السكيت: عتله وعتنه، باللام والنون جميعا. والعتل الغليظ الجافي. والعتل أيضا: الرمح الغليظ. ورجل عتل (بالكسر) بين العتل؛ أي سريع إلى الشر. ويقال: لا أنعتل معك؛ أي لا أبرح مكاني. وقال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع الملك من أولئك في جهنم بالدفعة الواحدة سبعين ألفا. وقال علي بن أبي طالب والحسن: العتل الفاحش سيئ الخلق. وقال معمر: هو الفاحش اللئيم. قال الشاعر:

بعتل من الرجال زنيم        غير ذي نجدة وغير كريم

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة. قالوا: بلى. قال: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار. قالوا: بلى. قال: كل عتل جواظ مستكبر. في رواية عنه: كل جواظ زنيم متكبر». الجواظ: قيل هو الجموع المنوع. وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته. وذكر الماوردي عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم، ورواه ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم». فقال رجل: ما الجواظ وما الجعظري وما العتل الزنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجواظ الذي جمع ومنع. والجعظري الغليظ. والعتل الزنيم الشديد الخلق، الرحيب الجوف، المصحح الأكول الشروب، الواجد للطعام، الظلوم للناس». وذكره الثعلبي عن شداد بن أوس: «لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري

ولا عتل زنيم». سمعتهن من النبي ﷺ. قلت: وما الجواظ؟ قال: الجماع المناع. قلت: وما الجعظري؟ قال: الفظ الغليظ. قلت: وما العتل الزنيم؟ قال: الرحيب الجوف، الوثير الخلق، الأكول الشروب، الغشوم الظلوم.

قلت: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفسرين. ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجواظ أنه الفظ الغليظ. ذكره من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري». قال: والجواظ: الفظ الغليظ. ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أولا. وقد قيل: إنه الجافي القلب. وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: عتل بعد ذلك زنيم قال: قال النبي ﷺ: «تبكي السماء من رجل أصح الله جسمه، ورحب جوفه، وأعطاه من الدنيا بعضا، فكان للناس ظلوما، فذلك العتل الزنيم. وتبكي السماء من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تقله». والزنيم الملصق بالقوم الدعي؛ عن ابن عباس وغيره.

قال الشاعر:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وعن ابن عباس أيضا أنه رجل من قريش كانت له زنمة كزنمة الشاة. وروى عنه ابن جبير. أنه الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. وقال عكرمة: هو اللئيم الذي يعرف بلؤمه كما تعرف الشاة بزنمتها. وقيل: إنه الذي يعرف بالأبنة. وهو مروي عن ابن عباس أيضا. وعنه أنه الظلوم. فهذه ستة أقوال. وقال مجاهد: زنيم كانت له ستة أصابع في يده، في كل إبهام له إصبع زائدة. وعنه أيضا وسعيد بن المسيب وعكرمة: هو ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم. وكان الوليد دعيا في قريش ليس من سنخهم؛ ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم

وقال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

قلت: وهذا هو القول الأول بعينه. وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه الذي لا أصل له؛ والمعنى واحد. وروي أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة ولد زنا، ولا ولده، ولا ولد ولده». وقال عبد الله بن عمر: إن النبي ﷺ قال: «إن أولاد الزنا يحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير». وقالت ميمونة: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعقاب». وقال عكرمة: إذا كثر ولد الزنا قحط المطر.

قلت: أما الحديث الأول والثاني فما أظن لهما سندا يصح، وأما حديث ميمونة وما قاله عكرمة ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: خرج النبي ﷺ يوما فزعا محمرا وجهه يقول: «لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث» خرجه البخاري. وكثرة الخبث ظهور الزنا وأولاد الزنا؛ كذا فسره العلماء. وقول عكرمة «قحط المطر» تبيين لما يكون به الهلاك. وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله. ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يطعم أهل منى حيسا ثلاثة أيام، وينادي: ألا لا يوقدن أحد تحت برمة، ألا لا يدخنن أحد بكراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة. وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر. ولا يعطي المسكين درهما واحدا فقيل: مناع للخير. وفيه نزل: ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة.

وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأخنس بن شريق، لأنه حليف ملحق في بني زهرة، فلذلك سمي زنيما. وقال ابن عباس: في هذه الآية نعت، فلم يعرف حتى قتل فعرف، وكان له زنمة في عنقه معلقة يعرف بها. وقال مرة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة.

* لا يغرنك بكاء من يبكي

ولا يغرنك بكاء من أسال على خديه بحرًا من الدموع فيخدعك دمعه فما أكثر الدمع الكذوب.

زار أحد العلماء القاضي شريح وعنده امرأة تشكو زوجها وهي تبكي فضحك العالم وقال للقاضي: احذرها فلا يغرنّك بكاؤها، فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون وقالوا له تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ولم يكونوا صادقين.

قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝﴾.

يقول البغوي في تفسيره:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ قال أهل المعاني: جاءوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب. وروي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟!

﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتد على أقدامنا. ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ وإن كنا ﴿صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق؟

قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا في الابتداء واتهمتنا في حقه.

وقيل: معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنا صادقين عند الله.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: بدم هو كذب، لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم.

وفي القصة: أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبر جميل.

وقيل: فصبر جميل أختاره.

والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون.

وفي القصة: أنهم جاءوا بذئب، وقالوا: هذا الذي أكله فقال له يعقوب: يا ذئب، أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عز وجل، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قط.

قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟.

قال: جئت لصلة قرابة [ فصادني هؤلاء ] فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام.

فقل لمن يبكي قبل أن تخدعك دموعه: امسح دموع عينيك وتحدث بلسانك حتى أستوعب ما تقول فربنا تعالى قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝﴾.

وتفهم واعدل في حكمك فما أكثر من بكت وهي تشكو زوجها حتى زعمنا أنه كافر لا يعاشر ثم عادت إليه وكأنه ما لمسها يوما بأذى.

* لا يغرنك عبادة عابد

بحكم قدري الذي قدره الله – تعالى – لي من الانشغال بالدعوة ومخالطة الناس والوقوف على مشكلاتهم رأيت أن معظم الخطر وجسيم المعضلات ونشف الريق وسوء التعامل لا يأتي إلا من العباد الذين يصلون الفجر في جماعة لا يتخلفون عنه صيفًا ولا شتاءً، الأمر الذي زادني يقينًا أن الدين غير مفهوم عند هؤلاء الذين ركعوا وسجدوا و تلوا القرآن وعذبوا أنفسهم بصيام النوافل واعتكفوا في المساجد.

ذلك الدين الذي يفر منه المسلم من الظلم فراره من الجرب والبرص وسائر ما تشمئز منهم نفوسهم غير الملوثة.

ذلك الدين الذي جاء فيه صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ: أن أقرب الناس منه ﷺ منزلا يوم القيامة الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون.

و الألفة لا تفرض فرضًا وإنما تتهادى من خلال المعاملة الرقيقة والرحيمة إلى القلوب كما يتهادى الندى فوق وجه الزهر في صبح جميل صاف بلا غيم ولا ضباب.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَلا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، تَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلا تَرَى شَيْئًا، ثُمَّ تَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلا تَرَى شَيْئًا، ثُمَّ تَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلا تَرَى شَيْئًا، وَتَتَمَارَى فِي الْفُوقِ». قَالَ الرَّبِيعُ: النَّصْلُ: حَدِيدَةُ السَّهْمِ، وَالْقِدْحُ: السَّهْمُ الَّذِي فِيهِ الْحَدِيدَةُ، وَرِيشُ السَّهْمِ: الَّذِي يُوضَعُ فِيهِ الْوَتَرُ وَيُرْوَى أَيْضًا: «وَتَنْظُرُ إِلَى الْقَدِيدَةِ فَلا تَرَى شَيْئًا» وَالْقَدِيدَةُ: رَأْسُ السَّهْمِ.

فلا يغرنك ما ترى من مظاهر العبادة فتلقى بنفسك في حضن غير أمين، وتظنه الحصن الحصين، وما هو بالحصين ولا المتين، واجعل التعامل والمخالطة الأساس في حكمك عليه.

جاء شاب ليشهد لرجل في قضية بين يدي الفاروق رضي الله عنه فقال له:

– يا ابن أخي هل تعرفه؟

– قال: نعم.

– قال عمر: أهو جارك؟

– قال: لا.

– قال عمر: هل سافرت معه فإن السفر يظهر معادن الناس؟

– قال: لا.

– قال: هل عاملته بالدينار والدرهم؟

- قال: لا.

- قال عمر: والله يا ابن أخي إنك لا تعرفه.

وحزني على هذا المعنى المغيّب شديد؛ كلما شكت لي زوجة تُضرب بالنعال وتذوق الوبال من زوج تقول فيه: مع أنه حافظ لكتاب الله - عز وجل - ولا يترك الفريضة ويقوم الليل، وتذكر من عبادته ما يجعل غيري يتمنى أن يكون مثله أو قريبًا منه.

ولو عرفت تلك الشابة هذه الحقيقة وهي أن الدين ليس ممارسة عبادات وإنما هو خلق يتجلى في معاملة بنيت على حسن الخطاب، وحسن المعاملة لما قالت لي مع أنه وأنه وأنه....

- **لا يغرنك أن تجده رقيقًا تاركًا ما كلفه الله به**

وفي الوقت نفسه لا يغرنك أن تجد شخصًا معطارًا متأنقًا لينًا جميلًا سخيًّا وهو تارك للصلاة وغيرها من العبادات التي كلفنا الله - تعالى - بها ظانًّا أن الدين المعاملة قائلًا في نفسه وماذا حصلنا من المصلين غير الظلم وسوء الخلق!!

فمن تطيّب بأفخم أنواع العطور التي يقال فيها عالمية وهو غير مصلّ فريحه أخبث ريح.

ومن لان في معاملاته تاركًا ما كلفه الله به فهو أقسى الناس، لا يعجبك شكله ولا تغرنّك هيئته فهو عاص لربه الذي أنعم عليه ورزقه وستره ولو شاء لأعنته وفضحه.

لا تغرّنّك يده السخية وهو مهمل في إخراج زكاة ماله الذي آتاه الله إياه، ولو عرف معنى السخاء لأدى ما عليه من زكاة هي ركن دينه قبل أن يكون سخيا مع عبد من عباد الله تعالى هو أنت.

إنها تمتد يده بما يشبه السخاء ليوقعك في براثنه وليمتص منك شيئًا قد يكون دمك.

إنه شيء وأنت تحسبه شخصًا.

كما كان الأول عابدا مجردا من ثمرات العبادة فلا خير في هذا ولا ذاك ولا تعوّل على هذا ولا ذاك.

إنما تعول على من أدى فريضة دينه وقد أثمرت فيه حسن خلق، ولا تعول على من تحسبه القمة في الذوق كما يقولون لكنه مقصر وكلنا مقصّر كما هي الحقيقة التي نقلها إليك الشيطان في فتواه لا ليبشرك بما أنت مغتر به من شكل جيل، وإنما ليطول فيك الأمل بأنه غدا سيتوب وينصلح حاله وما هو بتائب ولا منصلح حاله.

* لا يغرنك ما تراه من رثاثة الهيئة

ولا يغرنك ما تراه من رقة الحال ورثاثة الهيئة عند أحد فتستهين به ولا تنزله منزلته فالبراء بن مالك - رضي الله عنه - قال فيه النبي ما روى أنس بن مالك أن رسول الله قال: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ».

وقد لقي الله - تعالى - شهيدا بطلا مغوارا لم تكن الدنيا لتعنيه في شيء بل قال لأهل المدينة: يا أهل المدينة لا مدينة لكم إنما هو الله وحده والجنة.

وحين سئل أن يقسم على الله أن يمنح المسلمين أكتاف الكافرين الذين أوجعوهم قال:

أقسم عليك يا رب أن تمنح المسلمين أكتافهم وأن تلحقني بنبيك ﷺ فانتصر المسلمون ولقي - الله تعالى - شهيدًا.

لكـن النـاس تفـتن بالمظـاهر والشـكل، فيختلـف حكمهـم لاخـتلاف مـا فتنـوا بـه فذو الهيئة العالية مكرم مسموع، وذو الهيئة البالية مهين مدفوع.

روى البخـاري مـن حـديث سـهل بـن سـعد السـاعدي: أنـه مـر رجـل مـن فقـراء المسـلمين عـلى النبـي يومـا فقـال النبـي لأصـحابه: ( مـا تقولـون في هـذا؟ )، فقـالوا: رجـل مـن فقـراء المسـلمين، هـذا والله حـريٌّ إن خطـب ألا يـزوج، وإن شـفع ألا يشـفع، ثـم مـر رجـل آخـر مـن الأشراف، فقـال: ( مـا تقولـون في هـذا؟ )، قـالوا: رجـل مـن أشراف القـوم هـذا والله حـريٌّ إن خطـب أن ينكـح، وإن شـفع أن يشـفع، فأشار النبـي عـلى الرجـل الفقـير الأول فقـال: ( والله هـذا خـير مـن مـلء الأرض مـن مثل هذا ).

ولا يعنـي هـذا بحـال مـن الأحـوال أن كـل فقـير في الجنـة وأن كـل غنـي في النـار، إنـما هنـاك مـن أصـحاب الهيئـة العاليـة مـن هـو عـال في خلقـه وهنـاك مـن أصـحاب الهيئة المتواضعة من هو أشد وضاعة في خلقه من هيئة بدنه.

إنـما أراد سـيدنا النبـي ﷺ أن يعلمنـا أن الشـكل وحـده لـيس كافيـا في الحكـم عـلى الناس.

* لا يغرنك المنام

روى البخـاري في صـحيحه أن مـن رأى خـيرا فـالله يبشـره، ومـن رأى شرا فالشيطان يخوفه، والرؤيا حديث نفس.

وقـد ذكـر ابـن عبـد الـبر في ترجمتـه الإمـام مالـك في الجـزء الأول مـن التمهيـد أن رجلا رأى لـه منامـا طيبـا رأى فيـه رسـول الله ﷺ يشـيد بعلـم الإمـام مالـك وفضـله، فلما قصها عليه قال رحمه الله: الرؤيا تسر ولا تغر.

ويبدأ في شرف درس ...

وهـذا الـدين ديـن يقظـة لا منـام ولي كتـاب سـميته تفسـير اليقظـة لا المنـام في الإسلام، بينت فيه ذلك وشرحته فليرجع إليه من أراد.

والهـدف هنـا أن نلتفـت إلى اليقظـة ومعطياتهـا ومـا تسـفر عنـه مـن نتـائج لا تتخلـف في الغالـب، أمـا المنـام فمـرده إلى الخلـط ومـا يكـون مـن النـائم فيـه مـن الأضغاث.

ومعظم ما نراه من قبيل حـديث الـنفس كـما قيـل مـن قـديم: (الجـائع يحلـم بسـوق الخبز).

فإن رأى النـائم خـيرا فليبسـر وليحمـد الله - عـز وجـل - ولا يغـتر كـما قـال الإمـام مالـك رحمـه الله، الأمـر الـذي ينبني عليـه ألا ننشـغل بمفـردات المنـام ونبحـث لهـا عـن تأويل.

وليس لدينا علـم اسـمه علـم تفسـير الأحـلام، ولـيس لابـن سـيرين - رحمـه الله - كتاب في تفسير الأحلام وإنـما سرقـت طائفـة اسـم الرجـل ووضـعته عـلى كـلام فـارغ لا حقيقة له ولا أصل له لتبيع للناس الوهم، وهذا ما نسميه بالدجل العلمي.

ومفردات الخير معروفة من ماء وطعام وكساء وشفاء وغير ذلك.

ومفـردات الشـر معروفـة أيضًـا مـن السـرقة والحـبس والضـلال والحيـات والثعابين وغير ذلك.

ولا علم لدينا نرتكز عليه في أن كذا في الحلم معناه كذا في اليقظة وهكذا.

● لا يغرنك صغر الصغير

ولا يغرنـك صـغر الصـغير فتسـخر منـه وتسـتقله؛ فقـد يكـون عالمًـا رغـم صـغره موهوبًـا مـن طفولتـه قـال - تعـالى - مـن سـورة مـريم في يحيـى عليـه السـلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وحينما وُلّي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد لبيان حاجاتها وللتهنئة، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام هاشمي للكلام، وكان حديث السن، فقال عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافظًا، وقلبًا حافظًا، فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك، فقال عمر صدقت، قل ما بدا لك، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمنِّ الله الذي منَّ علينا بك، ولم يقدمنا إليك إلَّا رغبةٌ ورهبةٌ، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك، فقال عمر: عظني يا غلام، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناسًا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الأقدام فهووا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك، فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت. فقال عمر: كم عمر الغلام، فقيل له: ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه، فأثنى عليه خيرًا، ودعا له، وتمثَّل قائلًا:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافلُ

وقد أفتى الشافعي بين يدي الإمام مالك وهو دون الخامسة عشرة.

حين استفتى رجل كان يبيع الببغاء الإمام مالكًا حيث قال لمن أن أراد أن يشتريه حالفًا بالطلاق إنه لا ينام، وهو بلا شك ينام فقال يقع الطلاق فقال الشافعي: لا يقع؛ لأنه محمول على الأغلب.

ألم يقل رسول الله ﷺ في أبي الجهم: إنه لا يضع العصا عن عاتقه، وهو بلا شك يضعها عن عاتقه حين يقضي حاجته وحين ينام!

أراد النبي ﷺ الأعم الأغلب، وهذا البائع أراد الأعم الأغلب.

ففرح به الإمام مالك فرحًا عظيمًا وأجازه.

فلا تنظر من أين تخرج الحكمة فهي بغيتك خرجت من صغير أو من كبير!

* لا يغرنك كبر سن

وكذلك لا يغرنك كبر سن امرئ فتحسبه عالمًا خبيرًا وهو جاهل، تؤكد ذلك أيضًا مقولة: «آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه». فقد كان الإمام أبو حنيفة - رحمه الله- مجتمعًا مع تلاميذه في المسجد، وكان منهمكًا في شرح مسألةٍ فقهيةٍ، وفي تلك الأثناء دخل إلى المسجد رجلٌ حسنُ المنظرِ، فاخرُ الثيابِ، يبدو في ظاهره أنَّه من أهل اللغة والعلم والأدب.

عندما رأى أبو حنيفة هيئة ذلك الرجل وهندامه ظن أنه من أهلِ العلمِ والفصاحةِ، والأدبِ والبلاغةِ، والحنكةِ والفراسةِ، وعلى الفور احترم أبو حنيفة وجوده، ثم وازن جِلستَه، ورفع عمامته، وكفَّ قدميه، وقد كان رحمه الله كما روي عنه يعاني من ألم في ركبته، لكنه في تلك الجلسة لم يمد رجليه، فتحمل الألم وأبقى رجله مثنية احترامًا لهذا الرجل. وقطع شرحه عن تلاميذه، ثم استقبل ذلك الرجل كما يُستَقبلُ العلماء والأدباء والأمراء؛ لأن أهل العلم لهم شرفٌ عالٍ وقدرٌ وافٍ، يتحقق فيهم قول الشاعر:

العلمُ يَبني بُيوتًا لا عِمَادَ لها ... والجهلُ يَهدِمُ بَيتَ العِزِّ والكَرَمِ

كلُّ من في المسجد شاهد هيئة ذلك الرجل فعظَّمَ أمرُه في نفوسهم نظرًا لما فيه من جمال الظاهر والحُسن الباهر. جلسَ الرجلُ في بداية الأمر، ولم يَنْبِس ببنتِ شَفة، فتحقق في حاله المثل القائل: «الرِّجال أسوار ما لم تتكلم». ومعنى هذا المثل

أن الإنسان كالسُّور لا يُعْرَف ما وراءه حتى يَنْطِق، فإن نطق انكشف ما كان السور يخفيه، فأسوارٌ تخفي وراءها حدائق غناء مليئة بالزهور البيضاء، وأسوار تخفي مُـدُنًا جيلة ذات أنهار كثيرة، وأخرى أخفت وراءها من سقط المتاع ما يجلب الكآبة للرّائي.

بعد برهة من الزمن سأل ذلك الرجلُ أبا حنيفة قائلًا: يا أبا حنيفة إني سائلك فأجبني إن كنت عالمًا يُـتّكل عليه في الفتوى! في بداية الأمر شعر أبو حنيفة أنه مسؤول من قِبَلِ عالمٍ ربانيٍ لا يشق له غبار فقال له: تفضل. فقال الرجل: متى يفطر الصائم؟ بعد سؤال الرجل لأبي حنيفة شعر بأنه صاحب غرض عميق من هذا السؤال فسؤاله سهل ويسير، من الممكن أن يجيب عليه الغلمان، فظن أبو حنيفة أن الرجل يريد أن يختبر صبره على تفاهة أسئلة البسطاء، فزاد عِظَمُ أمرِ ذلك الرجل في نفس أبي حنيفة.

ردّ أبو حنيفة قائلًا: إذا غَرَبَتِ الشمسُ أفطر الصائمُ. فقال الرجل بعد إجابة أبي حنيفة، ووجهُهُ ينطق بالجدّ والحزم والعجلة، وكأنه وجد على أبي حنيفة ما يلومه عليه: وإذا لم تغرب شمس ذلك اليوم يا أبا حنيفة؟ وبعد سؤاله الثاني بان وظهر لأبي حنيفة ما يخفيه سور ذلك الرجل، فسوره مُتْقَنُ البناء، مُحَسَّنُ الطِّلاء، مُزركَشُ البُروز، مُثَبَّتُ الغُرُوز. ولكنه مع الأسف سُورُ مَقبرةٍ أيُّ مقبرة! ليست مقبرةَ آدميين، بل مقبرةَ الجهلِ. ابتسم أبو حنيفةَ بوجهِ ذلكَ الرجلِ ابتسامةً عريضةً، ثم قالَ مقولَتَهُ المشهورَةَ التي كُتِبَتْ في طياتِ مُجلَّداتِ السِّيَرِ بماءِ الذهبِ فَصارت مثلًا يورّثه السلفُ للخلفِ وهي: «آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه».

حتى وإن لم تثبت تلك الحادثة فكم جرب الناس الحياة ورأوا فيها الأعاجيب ومنها أن ترى الصغير عالمًا وأن ترى الكبير غبيًّا فاحذر وانتبه.

وأنا أقول هنا: وكم من حامل شهادة جامعية لا يحسن القراءة والكتابة مع الأسف، وكم من هو لا يحملها وهو فيهما بارع.

* لا يغرنك علو الصوت

ولا يغرنك علو الصوت؛ فتحسب صاحبه ذا حجة فمن كان ذا حجة كانت حجته صوته والحجة بالغة الوصول على متن الهدوء والجهال عرض عتبة بن ربيعة أن يخاطب رسول الله -ﷺ- في أمره ظانا أنه سيقنعه بالانصراف عنها.

قال عتبة: يَا ابْنَ أَخِي، إنّك مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْت مِنْ السّطَةِ - الشرف- فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النّسَبِ، وَإِنّك قَدْ أَتَيْت قَوْمَك بِأَمْرِ عَظِيمٍ فَرّقْت بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفّهْت بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْت بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفّرْت بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْك أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلّك تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله -ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ»، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إنْ كُنْتَ إنّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوّدْنَاك عَلَيْنَا حَتّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَك، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلّكْنَاك عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الّذِي يَأْتِيك رَئِيًا تَرَاهُ لا تَسْتَطِيعُ رَدّهُ عَنْ نَفْسِك طَلَبْنَا لَكَ الطّبّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنّهُ رُبّمَا غَلَبَ التّابِعُ عَلَى الرّجُلِ حَتّى يُدَاوَى مِنْهُ.

وفَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ الله -ﷺ- يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: «أَقَدْ فَرَغْت يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟»، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: «فَاسْمَعْ مِنّي»، قَالَ: «أَفْعَلُ»، فَقَالَ الحبيب ﷺ: بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَظَلَّ رَسُولُ الله -ﷺ- يقرأ وقد ألقى عتبة يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ منصتاً حتى

انْتَهَى رَسُولُ اللهِ -ﷺ- إِلَى السَّجْدَةِ، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

وحين نصحت للأئمة والوعاظ في محاضرة ألقيتها عليهم منذ أعوام قلت:

إني أسمع بعضكم حين يحكي واقعة محاولة اغتيال النبي ﷺ، حين كان نائمًا تحت شجرة في غزوة بني محارب وتسلل فأخذ سيفه الشريف وقال له من يمنعك الآن مني؟

قال عليه الصلاة والسلام: الله.

أسمعكم تقولون (الله) بصوت عال جدًا.

ومعنى ذلك أن السيف الذي سقط من يد الرجل سقط من الفزع.

فهل تزعمون أن النبي ﷺ أفزع الرجل بعلو صوته حتى سقط السيف من يده أم أن الله – تعالى – الذي توكل عليه هو الذي أسقطه حتى أخذه النبي ﷺ وقال له: من يمنعك الآن مني؟

فقال: حلمك وعفوك.

فعفا عنه وتركه.

وفي حديث ابن عباس يقول: لم يزد خليل الله حين رموه في النار عن (حسبي الله ونعم الوكيل).

ولا شك أنه ناجى من قال للنار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم بكل هدوء وجمال.

* لا يغرنك حسن الثناء عليك

ولا يغرنك حسن الثناء عليك فتظلم، حاول إخوة يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيه الذي وجد عنده صواع الملك وقالوا له: إنا نراك من المحسنين فقال لهم: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾.

يقول الرازي في التفسير الكبير:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾ اعلم أنه - تعالى - بيّن أنهم بعد الذي ذكروه من قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أحبوا موافقته والعدول إلى طريقة الشفاعة، فإنهم وإن كانوا قد اعترفوا أن حكم الله - تعالى - في السارق أن يستعبد، إلا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا، فقالوا: يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا أي في السن، ويجوز أن يكون في القدر والدين، وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابنا لرجل كبير القدر يوجب العفو والصفح.

ثم قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستعباد، ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء إليك.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه وجوه:

أحدها: إنا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك.

وثانيها: إنا نراك من المحسنين إلينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البذل الكثير، وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه، ورددت إلينا ثمن الطعام.

وثالثها: نقل أنه - عليه السلام - لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئا يشترون به الطعام، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سببا لصيرورة أكثر

أهل مصر عبيدا له ثم إنه أعتق الكل، فلعلهم قالوا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عامة الناس بالإعتاق فكن محسنا أيضا إلى هذا الإنسان بإعتاقه من هذه المحنة، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذا أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، أي أعوذ بالله أن آخذ بريئا بمذنب، قال الزجاج: موضع «أن» نصب والمعنى: أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره، فلما سقطت كلمة «من» انتصب الفعل عليه، وقوله: (إنا إذا لظالمون) أي لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنسانا بجرم صدر عن غيره.

فإن قيل: هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الإقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لا سيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فإنه يعظم حزن أبيه ويشتد غمه؟ فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة في التزوير إلى هذا الحد؟

والجواب: لعله - تعالى - أمره بذلك تشديدا للمحنة على يعقوب، ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر - تعالى - صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر.

وأقول في هذا السياق: لا يغرنك دعاء من دعا لك بخير حتى تعطيه ما ليس له، يظل يمطرك بدعوات كأنها سجع الكهّان من الستر في الدارين، والبركة في الدنيا والدين، والبركة في البنات والبنين، وأن يحرر الله على يديك فلسطين، وينصر بك النصارى والمسلمين حتى تعطيه ما يريد وهو ليس من حقه.

فلا تعطه ما ليس من حقه وثق أن الله تعالى يدخر لك ما هو أحلى مما جاء في دعائه.

* لا يغرنك دعاء من دعا عليك

كم من حقوق ضاعت بسبب الخوف من الدعاء ومنها ضياع الأبناء فيما يحسبه بعض الآباء والأمهات من البر وهو ليس من البر.

فلا تخضع لأمر ظالم من والديك خشية أن يدعو عليك،قدم لهما ما أمرك الله به من إحسان حيث قال: «وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» وبعد ذلك انطلق إلى غايتك المشروعة وسعيك على معاشك ومعاش ولدك حتى وإن دعوا عليك ليل نهار.

فالله تعالى الذي يدعوانه سميع بصير ولا يقبل الدعاء بظلم.

ماذا تفعل إن قال لك أحدهما أو اتفقا عليك فقالا لك:

اضرب زوجتك وإلا دعونا عليك ألا تعيش سعيدا!

بأي ذنب تضربها؟؟

أتقول: هكذا أمرني أبي أو أمرتني أمي وتطيح ببريئة، أو تطلقها ظلمًا و عدوانا لأنها ليست على هوى أبويك؟

وهل أبواك نبيان كما كان خليل الله إبراهيم -عليه السلام - نبيًا إذ أمر ولده إسماعيل عليهما السلام أن يغير عتبة بابه أي يطلق امرأته فطلقها!!

أتقيس أباك ذا الهوى على نبي ذي هدى يوحى إليه من ربه ووحي أبيك تخريف؟؟؟

إنها عن يقين جحدت فضل الله ولم تحمده ولم تشكر له نعمة وقالت: حالنا أسوأ حال.

سمعها المعصوم ورأى في طلاقها خيرًا، ولو علم في بقائها خيرًا بالوحي لما أمر ولده بفراقها.

فلا تقولن: نعم أطيع والـدي فقـد أمـر إبـراهيم ولـده إسـماعيل أن يطلـق زوجتـه فطلقها،فلست إسماعيل وليس أبوك إبراهيم.

وقد سمعت بعض الناس يقولون: نعطي فلانا كذا وكذا حتى لا يدعو علينا.

نعم نعطيه كذا وكذا وكيت و ذيت إن كان له ذلك دعا أو لم يدع.

وقـد رأيـت دجـلًا جديـدًا في هـذا البـاب حيـث ظهـر سـماسرة للـدجل يقولـون لك: أعطه حتى لا يدعو عليك فإن دعوته لا تنزل الأرض.

شيطان جاهل يخوفك فـلا تخـف ولا يغرنـك مـا تسـمع مـن التخويـف بالـدعاء مـا دمت ملتزمًا بما ينبغي الالتزام به، ولا عليك بعد ذلك بما يدعو به لك أو عليك.

* لا يغرنك أن غيرك أضوأ منك

وفي قلـب السـيرة والسـنة والتفسـير هـذه العبـارة التـي قالهـا عمـر - رضي الله عنـه - لابنتـه حفصـة - رضي الله - عنهـا حـين تظـاهرت عـلى النبـي ﷺ حيـث قـال لهـا لا تغضـبيه ولا تراجعيـه ولا تسـتكثريه أي لا تسـأليه الكثـير، و سـليني مـا شـئت ثـم قال لها:

ولا يغرنك أن جارتك أي عائشة أضوأ منك أي أجمل.

أي قـد يغـر المـرأة أن ضرتهـا أجمـل منهـا فتكيـد لزوجهـا أو تضـايقه أو تسـأله كـما تسأله الأخرى الجميلة.

جاء في صحيح البخاري:حدثنا يحيـى بـن بكـير حـدثنا الليـث عـن عقيـل عـن ابـن شهاب قال أخبرني عبيـد الله بـن عبـد الله بـن أبي ثـور عـن عبـد الله بـن عبـاس - رضي الله عـنهما - قـال لم أزل حريصـا عـلى أن أسـأل عمـر - رضي الله عنـه - عـن المـرأتين مـن أزواج النبـي ﷺ اللتـين قـال الله لهـما إن تتوبـا إلى الله فقـد صـغت قلـوبكما فحججت معه فعدل وعدلت معـه بـالإداوة فتـبرز حتـى جـاء فسـكبت عـلى يديـه مـن

الإداوة فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله - عز وجل - لهما: إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما؟ فقال: وا عجبي لك يا ابن عباس عائشة وحفصة ثم استقبل عمر الحديث يسوقه فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره وإذا نزل فعل مثله وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني فقالت ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني فقلت خابت من فعل منهن بعظيم ثم جمعت علي ثيابي فدخلت على حفصة فقلت أي حفصة أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل فقالت نعم فقلت خابت وخسرت أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكين لا تستكثري على رسول الله ﷺ ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه واسأليني ما بدا لك ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضربا شديدا وقال أنائم هو ففزعت فخرجت إليه وقال حدث أمر عظيم قلت ما هو أجاءت غسان قال لا بل أعظم منه وأطول طلق رسول الله ﷺ نساءه قال قد خابت حفصة وخسرت كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ فدخل مشربة له فاعتزل فيها فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي قلت ما يبكيك أولم أكن حذرتك أطلقكن رسول الله ﷺ قالت لا أدري هو ذا في المشربة فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلا ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي هو فيها فقلت لغلام له أسود استأذن لعمر فدخل فكلم النبي ﷺ ثم خرج فقال ذكرتك له فصمت فانصرفت حتى

جلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبني ما أجد فجئت فذكر مثله فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر فذكر مثله فلما وليت منصرفا فإذا الغلام يدعوني قال أذن لك رسول الله ﷺ فدخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم طلقت نساءك فرفع بصره إلي فقال لا ثم قلت وأنا قائم أستأنس يا رسول الله لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم فذكره فتبسم النبي ﷺ ثم قلت لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى النبي ﷺ يريد عائشة فتبسم أخرى فجلست حين رأيته تبسم ثم رفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله وكان متكئا فقال أوفي شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة وكان قد قال ما أنا بداخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهرا وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدها عدا فقال النبي ﷺ الشهر تسع وعشرون وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين قالت عائشة فأنزلت آية التخيير فبدأ بي أول امرأة فقال إني ذاكر لك أمرا ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك قالت قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك ثم قال إن الله قال يا أيها النبي قل لأزواجك إلى قوله عظيما قلت أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ثم خير نساءه فقلن مثل ما قالت عائشة.

وكما قلت في مسألة الدعاء أقول هنا على من يرى غيره أفضل وأحسب منه إلى غيره أن يلتزم بالمعروف وألا يغار غيرة غير طيبة من الأضوأ والأجمل حتى لا يجني على نفسه فلا يحصل حقه ولا هو فوقه

فليرض بالمعروف الذي يكفيه وليحمد الله عليه.

وقد رأيت كثيرات من البواكي يقلن: فلان يؤثر هذه علي!! ألأني لست مثلها في جمالها؟؟

ثم تذم هذا الجمال بأنها من ثمرات البودرة والألوان وتذم الخلق قائلة:

أصل أنا بنت ناس وقد ربيت أحسن تربية بخلاف من لم يربها أحد وتعرض بها أو تصرح.

وهذا ليس من الدين ولا من الخلق ولا من العقل في شيء!!

* لا يغرنك أن الدجال لا يسألك مالا

ولا يغرنك أن الدجال لا يسألك مالاً على ما يقدمه لك من وهم الخير وهو في الحقيقة لا يملك لك ولا لنفسه خيرا ولا شرا؛ فهو لا يسألك مالاً في الزيارة الأولى والثانية وبعد ذلك سيأخذ من وجهك عينيك. كالذي تريد خطبة ابنته فيحلف لك بالله أنه يكسوها ويمنحك إياها وبعد ذلك يقول لك: هي أمانة وأنا مسؤول عنها وهي امرأة مسكينة ضعيفة وأنا أريد أن أؤمن فقط مستقبلها لكي توقع له على قائمة منقولات بمليون ومؤخر صداق بمليونين لتلبث بعد ذلك في السجن بضع سنين.

وقد قال الرجل المؤمن لقومه الذين أرادوا أن يقتلوا رسولهم: اتبعوا من لا يسألكم أجرًا.

**قال ابن كثير:**

قال وهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك، وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة ذكره ابن إسحاق عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، وقال ابن عباس: اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه، وقال السدي: كان قصارًا، وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ فيما يدعونكم إليه عن عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع.

ولو سأل المرسلون الناس مالا لكانوا متهمين.

**قال القرطبي:**

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أي لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم.

**ويقول الطبري:**

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: أَيْ لَا يَسْأَلُونَكُمْ أَمْوَالَكُمْ عَلَى مَا جَاءُوكُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى، وَهُمْ لَكُمْ نَاصِحُونَ، فَاتَّبِعُوهُمْ تَهْتَدُوا بِهُدَاهُمْ

وَقَوْله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يَقُول: وَهُمْ عَلَى إِسْتِقَامَة مِنْ طَرِيق الْحَقّ، فَاهْتَدُوا أَيُّهَا الْقَوْم بِهُدَاهُمْ. ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: أَيْ لَا يَسْأَلُونَكُمْ أَمْوَالكُمْ عَلَى مَا جَاءُوكُمْ بِهِ مِنْ الْهُدَى، وَهُمْ لَكُمْ نَاصِحُونَ، فَاتَّبِعُوهُمْ تَهْتَدُوا بِهُدَاهُمْ وَقَوْله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يَقُول: وَهُمْ عَلَى إِسْتِقَامَة مِنْ طَرِيق الْحَقّ، فَاهْتَدُوا أَيُّهَا الْقَوْم بِهُدَاهُمْ.

لطالما سمعنا سماسرة الدجالين يقولون للضحية الجديدة:

على فكرة، إنه لا يأخذ من زواره مليمًا واحدًا، إنه يفعل هذا لوجه الله - عز وجل - خدمة يحتسب أجرها عند الله - عز وجل - وليس كالذين يتخذون من ذلك تجارة رابحة ويخربون بيوت الناس، لا لا إنه التقيّ الورع الذي ببركته تشفى من علتك وبلمسة يده المباركة تحمل زوجتك، وبقراءة فاتحة الكتاب على رأسك يصح جميع بدنك وبكتابة ورقة بخطه يأتيك الرزق حبوا ومشيا وطيرانا وغيرك يسف التراب.

حتى تخلع عنك رداء دينك وتؤمن بما لم ينزل الله به من سلطان، فليس لدينا شيء اسمه العلاج بالقرآن.

فالقرآن ليس تعويذة. وقد احتجم النبي ﷺ واستدعى الطبيب لأصحابه والقرآن قلبه وخلقه.

* لا يغرنك قصص الدجالين

ولا يغرنك قصص الدجالين فإنها محكمة الصنعة ولها أصولها ومن يقومون بتأليفها.

يقول لك بعضهم: أنا أول ما دخلت على الشيخ قال لي: تعال يا فلان يا ابن فلانة، سبحان الله وعرف اسمي واسم أمي وأنا لم أدخل عليه من قبل ولا صلة

لي به، وأخذ يحكي من أسراري ما لم أذعه عمري ولم أحدث به أحدا من الناس، ثم قال لي: لقد جئتني بسبب كذا وكذا، وعليك أن تعمل كذا وكذا وأن تأخذ هذه الورقة وتبلها بماء كذا وتشرب منه ثمانين ألف مرة على الريق و.........

وأنت تقول عقب كل جملة تسمعها: ما شاء الله!!!!!

ويحكى لك ما كان من قصص تشبه المعجزات في علاج من حارت فيه الأطباء ولأن الأطباء أغلبهم لا ينجحون ولأنهم صاروا لا يقولون كلمة إلا بعد تحاليل وتصاوير في الغالب لا داعي إليها، وهي ذات تكاليف غالية ومعظمهم فقراء هذا بالإضافة إلى أن الناس يحبون العجلة والطب على سنن الحياة والزمن لا بد من مراعاته فيه، يريدون علاج أمورهم كلها بكن فيكون، وهي عند الدجال كما يزعمون.

وأقول لهؤلاء وهؤلاء:

لقد استعان النبي ﷺ بدليل في هجرته هو عبد الله بن أريقط لأنه كان خبيرًا بالطرق.

وسأل رجلا من باهلة كان قد زاره من عام سبق لأن صيامه الدائم أرهقه فتغيرت ملامحه فلم يعرفه وقال له: من أنت؟

أيكون هذا رسول الله ﷺ - وتظن أن الدجال منه أعلم بأسماء الناس وأسماء أمهاتهم دون سابق لقاء أو معرفة!!!!!!

وقابل النبي ﷺ امرأة تبكي فقال لها:

- ما الذي يبكيك؟

- أجائعة أنت؟

- أعريانة أنت؟

فقالت: أخذوا ولدي مني يا رسول الله؛ فرد إليها ولدها.

لم يقل لها: أنا أعرف ما الذي يبكيك؛ فقد أخذوا منك ولدك أليس هذا صحيحا؟

فتقول: بلى الله أكبر.

ولو قال لها ذلك لما كان فيه من غرابة إذ أعلمه الله بالوحي وهو تعالى بكل شيء عليم.

فأي وحي عند هؤلاء يا أولي الألباب؟!

* لا يغرنك كرم الكريم

لا يغرنك كرم الكريم فتحسبه غنيًا فقد يكون أفقر الناس ويتكلف لك حتى تظن بأنه أغناهم هو لا يريدك أن تظن به ذلك وإنما يريدك أن تقر عينا وأن تهنأ إذا نزلت به.

مر النبي ﷺ بغني ومعه صحبه الكرام فلم يضيّفهم ذلك الغني.

ومروا بامرأة لا تملك غير شويهات قليلة فذبحت لهم وأضافتهم.

عن أبي المنهال، قال: مر النبي ﷺ برجل له عكر من إبل وغنم، فلم يضيفه، ومر بامرأة لها شويهات، فذبحت له وأضافته، فقال النبي ﷺ: «انظروا إلى هذه، مررنا بهذا الرجل وله عكر من إبل وغنم وبقر، فلم يذبح لنا، ولم يضيفنا، وإنما لها شويهات، فذبحت لنا وضيفتنا». ثم قال ﷺ: «إنما هذه الأخلاق بيد الله، فمن شاء أن يمنحه الله خلقا حسنا فعل».

حدثنا عبد الله بن أبي سعد، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا الحسن بن الرماس الفيدي، قال: سمعت عبد الرحمن بن مسعود، يقول: سمعت سلمان، يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا، وأن نقدم إليه ما كان حاضرا.

فإذا علمت أن الكرم والبخل من الخلق فلا تحكم على الكريم بأنه غني جدا فتنزل به كل يوم فترهقه أو تذهب إليه لتقترض منه مبلغًا عظيمًا من المال فتحرجه. لك عقل فأعمله ولك عينان فانظر لا تجسّسًا ولكن تفقدًا، حتى ترفق بمن ضحى من أجلك وتسأل الله أن يخلف عليه خيرا ولا تنس أن تكافئه.

سئل أكرم العرب حاتم الطائي:

هل وجدت أكرم منك؟

قال: نعم مررت بغلام يتيم فذبح لي شاة وشوى لي مخها حتى يطبخها وجاءني به فقلت: ما أطيب هذا المخ!

فسمعني وبعد قليل عاد إلى بمثله فعلمت أنه ذبح ثانية ثم ذبح جميع ما عنده ووزع لحومها على أهل حيه فلما رجعت إلى دياري أرسلت إليه مائة ناقة عوضًا عما أصابه، وكثير من الناس لا يعرف هذا العوض بل يخرب بيوت الناس بحمقه وجهله وحب أكل أموالهم بالباطل ولكن تحت مظلة كرم الضيافة.

* لا يغرنك ضحك الضاحك

قد يضحك المرء مثلي ومثلك فتتحرك شفتاه وتحمر وجنتاه وتبرق عيناه ويظن من يجهله أنه يعيش في واد من السعادة حوله الأشجار وتحيط به الظلال والثمرات.

فلا تكن من الجاهلين وتفحّصه، فليس شرطًا كي يبدي حزنه أن يقطع الدنيا دموعا وشكوى.

وسيرة نبينا ﷺ خير دليل:

فقد عاش عنت الكافرين ومشقة اليهود وخبث المنافقين وقتلت ابنته زينب وهي حامل وسمي العام الذي ماتت فيه أمها خديجة - رضي الله - عنها عام الحزن،وكان ما كان من الكفرة يوم الطائف حيث سلطوا عليه صبيانهم وسفهاءهم فرموه بالحجارة وأدموا كعبه الشريف وأخذ منه عنقود العنب الذي جاءه به عداس فتى عتبة وعتيبة ابني ربيعة وقال مناجيا ربه: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.

والمعهود عنه ﷺ أنه ما شوهد إلا مبتسما فهل تظن انه كان بلا هم ولا فكر ولا معاناة وقد كاد يقتل نفسه حسرة على كفر من لم يؤمن بالقرآن الكريم.

قال له تبارك اسمه: «فلعلك باخع نفسك.....» أي قاتلها ومع هذا كان مبتسمًا.

يقول ابن كثير:

يقول - تعالى - مسليا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفا.

قال قتادة: قاتل نفسك غضبا وحزنا عليهم. وقال مجاهد: جزعا. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر - تعالى - أنه جعل الدنيا دارا فانية مزينة بزينة زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾.

* لا يغرنك القرب

ولا يغرنك قرب القريب منك دما أو جوارا فتهمل حاجتك وتتكل عليه، فليس القريب بنافع إلا أصلا وما أبعد الناس عن الأصول، وما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك؛ فقد يخذلك القريب ويحلف لك بوكيد الأيمان أنه أفقر إنسان واعلم أن من الحكمة قول قيس بن الملوح:

على أن قُرْبَ الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

* لا يغرنك حلم الحليم

ولا تغتر بحلم الحليم فتستمر في كيده وإغاظته فيتراكم في لحظة في قلبه ثم ينفجر فيك فجأة، فلا تملك منه فرارا،وانفجار الحليم إذا انفجر أشد من انفجار البراكين وما يقال في أيامنا من مولوتوف وغيره ولله در شوقي حيث قال:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مضاء

وقال محمد بن وهيب:

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

وما كنت أرضى الجهل خدنا ... ولكنني أرضى به حين أحرج

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله ... وأمكن من بين الأسنة مخرج

وإن قال بعض الناس فيه سماجة ... فقد صدقوا والذل بالحر أسمج

فبالجهل لا أرضى ولا هو شيمتي ... ولكنني أرضى به حين أعوج

* لا يغرنك السكوت

ليس كل سكوت رضا إلا سكوت المصطفى ﷺ حيث كان سكوته عن شيء يراه آية من آيات رضاه وإقرارا بما رأى.

ولا نبوة بعده ﷺ، وقد قيل:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

فانتبه إلى ما يوجب السكوت عند بعض الناس:

قد يكونون شاردين مسافرين بأذهانهم ووجدانهم وأنت تحشو آذانهم بكلامك وتظن أنه بلغهم وهم به موافقون وعنه راضون.

وقد يكون الساكت ملقيًا بها يسمع في بحر عميق لا تراه عيناك

وقد يكون الساكت صابرًا، ولكن للصبر أجل ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وحتى يحكم الله.

وجوده حتى في سياق الصبر يدل على أن الصبر له أجل وأنه ليس إلى انتهاء الأجل.

فهم الناس ذلك خطأ لجهلهم بلغة الدين.

والله تعالى يقول: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾.

وهكذا فاستوثق ممن تخاطبه أنه يوافقك ولا يغرنك سكوته فتندم إذ يقول لك: لا ثم لا ثم لا وتقول: كيف ذلك وقد كنت أخاطبك وأشرح لك وأنت ساكت؟

جهل منك حيث غرك السكوت وزعمته رضا وليس كل سكوت رضا.

## * لا يغرنك الوعد

ولا تغتر بوعد من يعدك فليس كل من وعد وف.

وقد تمنّى رجال من المؤمنين أن تنزل سورة تأمرهم بالقتال وقالوا نجاهد ونفعل كذا وكذا، فلما نزلت السورة محكمة تأمرهم بالقتال دارت أعين بعضهم كالذي يغشى عليه من الموت.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول ابن كثير:

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله - عز وجل - وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقال هاهنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ﴾ أي: مشتملة على حكم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة

الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

ومن الناس من غرته الوعود البراقة فإذا حان الجد رأيت من وعدها أو صاغها شعرا يسبي القلوب يروغ ممن وعده كما يروغ الثعلب

وعندئذ يلعن الناس والوعود ويمسي ذا عقد ما كان أغناه عنها لو لم يغتر بتلك الوعود

وهل ضيع الأنثى الغر إلا تصديق واعدها فسلّمت له نفسها وهو الكذوب!!!

من علّمها ألا تغتر!!

* لا يغرنك الوعيد

بعض الناس إذا سمع وعيدًا وجل قلبه وفكّت مفاصله وخاصم النوم والدعة والراحة، وقد سمع المؤمنون أن الكافرين أعدوا لهم ما لا قبل لهم به فما قالوا غير حسبنا الله ونعم الوكيل وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

جاء في تفسير القرطبي:

دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسول الله - ﷺ- عن أبي سفيان فقالوا: قد جمعوا لكم جموعا كثيرة فاخشوهم أي فخافوهم واحذروهم؛ فإنه لا طاقة لكم بهم. فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع، والله أعلم.

قوله تعالى: فزادهم إيمانًا أي فزادهم قول الناس إيمانا، أي تصديقا ويقينا في دينهم، وإقامة على نصرتهم، وقوة وجراءة واستعدادا. فزيادة الإيمان على هذا هي في الأعمال. وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه على أقوال. والعقيدة في هذا على أن نفس الإيمان الذي هو تاج واحد، وتصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد، لا يدخل معه زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان في متعلّقاته دون ذاته. فذهب جمع من العلماء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ لقوله - ﷺ -: الإيمان بضع وسبعون بابًا فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق أخرجه الترمذي، وزاد مسلم ( والحياء شعبة من الإيمان ) وفي حديث علي - رضي الله عنه -: إن الإيمان ليبدو لمظة بيضاء في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة. وقوله «لمظة» قال الأصمعي: اللمظة مثل النكتة ونحوها من البياض؛ ومنه قيل: فرس ألمظ، إذا كان بجحفلته شيء من بياض. والمحدثون يقولون «لمظة» بالفتح. وأما كلام العرب فبالضم؛ مثل شبهة ودهمة وخمرة. وفيه حجة على من أنكر أن يكون الإيمان يزيد وينقص. ألا تراه يقول: كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة حتى يبيض القلب كله. وكذلك النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب كلما ازداد النفاق أسود القلب حتى يسود القلب كله. ومنهم من قال: إن الإيمان عرض، وهو لا يثبت زمانين؛ فهو للنبي - ﷺ - وللصلحاء متعاقب، فيزيد باعتبار توالي أمثاله على قلب المؤمن، وباعتبار دوام حضوره. وينقص بتوالي الغفلات على قلب المؤمن. أشار إلى هذا أبو المعالي. وهذا المعنى موجود في حديث الشفاعة، حديث أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم. وفيه: (فيقول المؤمنون يا ربنا إخواننا كانوا يصومون ويصلون ويحجون فقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم

يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ) وذكر الحديث.

وقد قيل: إن المراد بالإيمان في هذا الحديث أعمال القلوب؛ كالنية والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك. وسماها إيمانا لكونها في محل الإيمان أو عني بالإيمان، على عادة العرب في تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوره، أو كان منه بسبب. دليل هذا التأويل قول الشافعي بعد إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من خير: (لم نذر فيها خيرا) مع أنه تعالى يخرج بعد ذلك جموعا كثيرة ممن يقول لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعا؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم. ثم إن عدم الوجود الأول الذي يركب عليه المثل لم تكن زيادة ولا نقصان. وقدر ذلك في الحركة. فإن الله - سبحانه - إذا خلق علما فردا وخلق معه مثله أو أمثاله بمعلومات فقد زاد علمه؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص، أي زالت الزيادة. وكذلك إذا خلق حركة وخلق معها مثلها أو أمثالها. وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو طريق الأدلة، فتزيد الأدلة عند واحد فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان؛ وبهذا المعنى - على أحد الأقوال - فضل الأنبياء على الخلق، فإنهم علموه من وجوه كثيرة، أكثر من الوجوه التي علمه الخلق بها. وهذا القول خارج عن مقتضى الآية؛ إذ لا يتصور أن تكون الزيادة فيها من جهة الأدلة. وذهب قوم: إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي - ﷺ - وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر. وهذا إنما هو زيادة إيمان؛ فالقول فيه إن الإيمان يزيد قول مجازي، ولا يتصور فيه النقص على هذا الحد، وإنما يتصور بالإضافة إلى من علم. فاعلم.

قوله تعالى: وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل أي كافينا الله. وحسب مأخوذ من الإحساب، وهو الكفاية. قال الشاعر:

فتملأ بيتنا إقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

روى البخاري عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار. وقالها محمد - ﷺ - حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم، وقد يكون الذي توعّدك أضعف من وعيده فكيف يحصل لك ما يحصل للضعيف الذي غره الوعيد فاضطرب من بعد ثبات ووهن من بعد قوة!!

ألا ترى إلى قول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

أي أن الفرزدق كان واعد رجلا اسمه مربع أن يقتله فقال جرير: أبشر بطول سلامة يا مربع لعجز الفرزدق عن قتل مثلك

وكم رأيت من أناس عزفوا عن الحق وتركوا المطالبة به خوفا من وعيد سخيف ضعيف يقولون: لكنه قال كذا وكذا وأنا خائف على ولدي أن يقتله وبنتي أن يحرق وجهها الصبوح بماء النار... النار النار.

وما هكذا ينبغي أن يكون سلوك المسلم العاقل الذي لو أعمل عقله لعرف أن من واعده أضعف من يأتي بماء الصرف الصحي التي تفيض في كل مكان فضلًا عن أن يأتي بماء النار.

* لا يغرنك عفة المحتاج

ولا تغرّنك عفة المحتاج الذي لا يمد يده بسؤال فقد يكون أفقر الناس ألا ترى إلى قوله تعالى من سورة البقرة:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

يقول ابن كثير:

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين اللذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سفرا للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا». وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضا.

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال [الله] تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وفي الحديث الذي في السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف في المسألة؛ قال البخاري:

حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبي نمر: أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم» يعني قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

وقد رواه مسلم، من حديث إسماعيل بن جعفر المديني، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار وحده عن أبي هريرة، به.

وقال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك وهو ابن أبي نمر عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

وروى البخاري من حديث شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن أبي الوليد، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافا».

وقال ابن جرير: حدثني معتمر، عن الحسن بن ماتك عن صالح بن سويد، عن أبي هريرة قال: ليس المسكين الطواف الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين المتعفف في بيته، لا يسأل الناس شيئا تصيبه الحاجة؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائما يخطب، وهو يقول: «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا». فقلت بيني وبين نفسي: لناقة لي خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله.

وهكذا رواه أبو داود والنسائي، كلاهما عن قتيبة. زاد أبو داود: وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال بإسناده، نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة وقية فهو ملحف» والوقية: أربعون درهما.

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بني أسد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا».

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا في وجهه». قالوا: يا رسول الله، وما غناه؟ قال: «خمسون درهما، أو حسابها من الذهب».

وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث حكيم بن جبير الأسدي الكوفي. وقد تركه شعبة بن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس، حدثني أبي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: بلغ الحارث رجلا كان بالشام من قريش أن أبا ذر كان به عوز، فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلا هو أهون عليه مني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبي ذر أربعون درهما وأربعون شاة وماهنان. قال أبو بكر بن عياش: يعني خادمين.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان، عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «من سأل وله أربعون درهما فهو ملحف، وهو مثل سف الملة» يعني: الرمل.

ورواه النسائي، عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان وهو ابن عيينة بإسناده نحوه.

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه.

* لا يغرنك نشيد السائل

وفي الوقت نفسه لا يغرنك نشيد السائل المحترف الذي يطاردك و كأنك ملاذه الوحيد الذي إن لم تعطه ضاع فقد يكون أغنى منك و لكنه يرتدي ثوب الحرفة المرقع ويمشي كالأعرج وهو قوي عفيّ و يغمض عينيه كأنه لا يرى وهو سليم البصر.

وليس هذا هو المسكين فهذا ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان كما قال النبي ﷺ وإنما المسكين الذي ليس عنده ما يكفيه ولا يمد يده للناس فلا يفطن إليه أحد إلا من كان كتاب الله تعالى في قلبه نورًا وفي عينه نورًا فهو يبصر الحقيقة التي يبحث عنها فإذا أبصرها عمل بمقتضاها.

* لا تغرنك المظاهر

لا تحسب أن من لبست ضيقا امرأة بغيًا فهي عادة وثقافة سوداء سيئة والله يهديها ويهدينا جميعًا.

ولا تحسبن من جرت ثوبها النفضفاض وغطت حتى وجهها تقية، هي على صواب شكلًا لكن التقوى كما قال النبي ﷺ في القلب.

ولا يغرنك أنك تعرفت على فلان في الحرم فليس ذلك بدليل على طيبه، إنما يدل على طيبه معاشرتك لك.

ولا يغرنك من كان ذكر الله تعالى على لسانه كثيرًا فالذكر بالقلب قبل اللسان ومن كان لله ذاكرًا كان مستذكرًا شرعه فلا يظلم ولا يعتدي.

ولا يغرنك من يقول لك: أنا أعوذ بالله أن أطعم أولادي من حرام فالدليل فعله لا قوله ولا حلفه.

ولا يغرنك أن سيارتك عفية فتسرع بها فتنقلب

ولا يغرنك ما ترى من شحم إنسان فقد يكون شحمه ورما.

وما أروع المتنبي حين قال:

يـا أعـدَلَ النَّـاسِ إلاَّ في مُعـامَلَتي فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ

أُعِيـذُها نَظَـراتٍ مِنْـكَ صـادِقَةً أن تحسَبَ الشَّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

وَمَـا انْتِفَـاعُ أخـي الـدُّنْيَا بِنَـاظِرِهِ إذا اسْـتَوَتْ عِنْـدَهُ الأنْـوارُ وَالظُّلَـمُ

* لا يغرنك الابتلاء

ولا يغرنك الابتلاء فتحسب الخير من الله دليل رضاه وتحسب الشر غضبًا منه على أهله فالخير والشر ابتلاء ويكون النجاح في الخير بالشكر وفي الشر بالصبر قال تعالى في آيات سورة الفجر: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ يقول ابن كثير:

يقول تعالى منكرا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: (كلا) أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرا بأن يصبر.

وقوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي عتاب عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ -: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» ثم قال بأصبعه: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة هكذا».

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا عبد العزيز - يعني ابن أبي حازم - حدثني أبي، عن سهل - يعني ابن سعد - أن رسول الله - ﷺ - قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وقرن بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: من أي جهة حصل لهم، من حلال أو حرام، ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: كثيرا، زاد بعضهم: فاحشا.

***

# الفصل الثالث

## ثمرات الاغترار

ثمرات الاغترار كلها مُرة لا تستساغ، وندم حيث لا ينفع الندم وألم ليس له في الغالب من أمل في العلاج.

وقد تكون عاقبته الإبادة بمن اغتر بحيث لا يبقى وصف من ألم ولا ندم.

كما سبق أن ذكرنا في قصة قارون من هذا الكتاب.

والآن أضرب قصة أخرى من قصص القرآن الكريم وهي قصة معروفة عند العلماء بقصة المؤمن والكافر والتي ذكرها ربنا تعالى في سورة الكهف:

قال الله تعالى في سورة الكهف بعد قصة أهل الكهف: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى

وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

**قال ابن كثير في البداية والنهاية:**

قال بعض الناس: هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعاً، والجمهور أنه أمر قد وقع. وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعني: لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء وازدرائهم بهم، وافتخارهم عليهم كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

كما قدمنا الكلام على قصتهم قبل قصة موسى عليه السلام، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، ويقال إنه كان لكل منهما مال فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه.

وأما الكافر فإنه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور، فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الأعناب والزروع في ذلك، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزه، وقد استوثقت فيهما الثمار واضطربت فيهما الأنهار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكهما على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أوسع جنانا،

وعراه أنه خير منه ومعناه ماذا أخشى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه، كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: وهو على غير طريقة مرضية ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها، وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارة لكثرة مياهها.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة، ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان ثم آخرة ومعاد، فلأجدن هناك خيرا من هذا وذلك، لأنه اغتر بدنياه واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له وحظوته عنده.

كما قال العاص بن وائل فيما قص الله من خبره، وخبر خباب بن الأرت في قوله في سورة مريم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۞ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وقال تعالى إخبارا عن الإنسان إذا أنعم الله عليه: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وقال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: لعلم الله بي أني أستحقه.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقد قدمنا الكلام على قصته في أثناء قصة موسى.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به في الدنيا، فجحد الآخرة وادعى أنها إن وجدت ليجدن عند ربه خيرا مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يجادله ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم صورك أطوارا حتى صرت رجلا سويا سميعا بصيرا تعلم وتبطش وتفهم، فكيف أنكرت المعاد والله قادر على البداءة؟

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك.

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: لا أعبد سواه، وأعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الأموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله

لا شريك له في خلقه ولا في ملكه ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله أن يقول كذلك.

وقد ورد فيه حديث مرفوع في صحته نظر.

قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن يوسف، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرارة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

فيرى فيه أنه دون الموت، وكان يتأوّل هذه الآية ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس لا يصح.

ثم قال المؤمن للكافر: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ويرسل عليها حسبانا من السماء.

قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة: أي عذابا من السماء، والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ وهو ضد المعين السارح ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ يعني: فلا تقدر على استرجاعه.

قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرب جنته ودمرها ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خربت بالكلية فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ومنهم من يبتدئ بقوله ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو حسن أيضا لقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمتان.

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: معاملته خير لصاحبها ثوابا وهو الجزاء، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ وهو العاقبة في الدنيا والآخرة.

وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها، ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه، وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، وفيها أن من قدم شيئا على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده.

وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة. وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر المحتم.

سقط الرجل خير واجد فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا لأنه دخل جنته فاغتر بها وظنها دائمة بل زعم أن الساعة ليست قائمة بل اتسع غروره فقال إنه لو انقلب إلى ربه لوجد خيرا منها عنده.

مثله في ذلك مثل من قال للخباب بن الأرت وكان عليه مال له: اكفر بمحمد وأنا أعطيك حقك فلما قال له: لا.

قال: لو كان يوم القيامة فاتني فسوف يعطيني ربي هنالك مالا و ولدا.

قال الله تعالى من سورة مريم:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

قال ابن كثير:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلا قينا، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به، وفي لفظ البخاري: كنت قينا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفا، فجئت أتقاضاه. فذكر الحديث وقال: (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال: موثقا.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الأرت، كنت قينا بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالا وولدا، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولدا» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الحمد لله العزيز فردا … لم يتخذ من ولد شيء ولدا

وقال الحارث بن حلزة:

ولقـــد رأيــــت معــــاشرا     قـــد ثمـــروا مـــالا وولـــدا

وقال الشاعر:

فليــت فلانـــا كـــان في بطـــن أمـــه     وليـــت فلانـــا كـــان ولـــد حمـــار

وقيـل: إن «الولـد» بالضـم جمع، «والولـد» بـالفتح مفـرد، وهـي لغـة قـيس، والله أعلم.

وقولـه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾: إنكـار عـلى هـذا القائـل، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعني: يـوم القيامـة، أي: أعلـم مـا لـه في الآخـرة حتـى تـألى وحلـف عـلى ذلـك، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أم لـه عنـد الله عهـد سـيؤتيه ذلـك؟ وقـد تقـدم عنـد البخاري: أنه الموثق.

وقـال الضـحاك، عـن ابـن عبـاس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قـال: لا إلـه إلا الله، فيرجـو بهـا. وقـال محمـد بـن كعـب القرظـي: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قـال: شـهادة أن لا إلـه إلا الله، ثـم قـرأ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وقولـه: ﴿كَلَّا﴾: هـي حـرف ردع لمـا قبلهـا وتأكيـد لمـا بعـدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: مـن طلبـه ذلـك وحكمـه لنفسـه بـما تمنـاه، وكفـره بـالله العظـيم ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ أي: في الـدار الآخـرة، عـلى قولـه ذلـك، وكفـره بـالله في الدنيا.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولدا، زيادة على الذي له في الدنيا؛ بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. أي: من المال والولد.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، قال: نرثه.

وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده».

وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مال له، ولا ولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال: فردا من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

غرّ هذا ما غرّ ذاك و كلهم في الاغترار إخوة و كان مصيرهم واحدًا.

*** غرّه الشيطان فهوى به في جهنم**

وقد غرّ الشيطان الإنسان حتى كفر فلما كفر قال له الشيطان الذي غره: إني بريء منك وكم من شيطان إنسيّ فعل كما فعل شيطان الجن غر صاحبه فلما أذهبه في داهية تبرأ منه وقال له ما نحفظه جميعا: أنا لم أضربك على يديك.

قال تعالى من سورة الحشر:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾.

قال ابن عاشور:

هذا مثل آخر، وليس مثلا منضما إلى المثل الذي قبله لأنه لو كان ذلك لكان معطوفا عليه بالواو، أو بـ ( أو ) كقوله تعالى أو كصيب من السماء.

والوجه: أن هذا المثل متصل بقوله ( ولهم عذاب أليم ) كما يفصح عنه قوله في آخره فكان عاقبتهما أنهما في النار الآية، أي مثلهم في تسببهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار.

فجملة كمثل الشيطان حال من ضمير ( ولهم عذاب أليم ) أي في الآخرة.

والتعريف في (الشيطان) تعريف الجنس وكذلك تعريف (الإنسان). والمراد به الإنسان الكافر.

ولم ترد في الآخرة حادثة معينة من وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا، وكيف يكون ذلك والله تعالى يقول: فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، وهل يتكلم الشيطان مع الناس في الدنيا فإن ظاهرة قوله قال إني بريء منك أنه يقوله للإنسان، وأما احتمال أن يقوله في نفسه فهو احتمال بعيد. فالحق: أن قول الشيطان هذا هو كما في آية: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾.

وقد حكى ابن عباس وغيرهما من السلف في هذه الآية قصة راهب بحكاية مختلفة جعلت كأنها المراد من الإنسان في هذه الآية. ذكرها ابن جرير والقرطبي وضعف ابن عطية أسانيدها فلئن كانوا ذكروا القصة فإنها أرادوا أنها تصلح مثالا لما يقع من الشيطان للإنسان كما مال إليه ابن كثير.

فالمعنى: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر فلما كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة: إني بريء منك، أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس إني بريء منك طمعا في أن يكون ذلك منجيه من العذاب.

ففي الآية إيجاز حذف، حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط (لما) هي داخلة في الشرط إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان: إني بريء منك إلخ. وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم وآية سورة ق: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾. وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء وبعد موت الكافر على الكفر دون من أسلموا.

وقول فكان عاقبتها أنهما في النار خالدين فيها من تمام المثل. أي كان عاقبة المثل بهما خسرانهما معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبرا وكادا للمسلمين.

وجملة «وذلك جزاء الظالمين» تذييل، والإشارة إلى ما يدل عليه فكان عاقبتها أنهما في النار من معنى، فكانت عاقبتهما سوأى والعاقبة السوأى جزاء جميع

القاتلين المعتدين على الله والمسلمين فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء؛ كذلك تكون عاقبة المحتالين بها وقد اشتركا في ظلم أهل الخير والهدى.

● عاقبة الغرور بالوعد الكاذب

كم هي سيئة عاقبة الغرور بالوعد الكاذب من شخص كذوب.

انظر إلى الشيطان أيضًا حين قال لقريش لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم.

فماذا كان لهم غير القتل والأسر!!

يقول الطبري:

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم)، وحين زين لهم الشيطان أعمالهم، وكان تزيينه ذلك لهم، كما:

حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: جاء إبليس يوم بدر في جُنْد من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ﴾. فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولَّوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده فولَّى مدبرًا هو وشيعته،

فقال الرجل: يا سراقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وذلك حين رأى الملائكة.

فانظر في حياتك من يعدك وهل جربت من قال لك: امض إلى كذا وأنا معك فلما جاء يوم المضيّ وناديته كانت أعذاره أكثر من أن تحصى!!

ومضيت وحدك وكان ما كان من معاناة أو رجعت إذ خذلك وفي حلقك غصّة وفي قلبك أسى!

* بيع الغرر حرام

و بإجماع العلماء لا يحل ولا يجوز بيع الغرر.

وأصل الغرر هو الذي لا يدري هل يحصل أم لا؟ كالطير في الهواء والسمك في الماء، وأما ما علم حصوله وجهلت صفته فهو المجهول كبيعه ما في كمه فهو يحصل قطعًا لكن لا يدري أي شيء هو.

فالغرر والمجهول كل واحد منهما أعم من الآخر من وجه، وأخص من وجه، فيوجد كل واحد منهما مع الآخر وبدونه، أما وجود الغرر بدون الجهالة فكشراء العبد الآبق المعلوم قبل الإباق لا جهالة فيه وهو غرر؛ لأنه لا يدري هل يحصل أم لا، والجهالة بدون الغرر كشراء حجر يراه لا يدري أزجاج هو أم ياقوت مشاهدته تقتضي القطع بحصوله فلا غرر، وعدم معرفته تقتضي الجهالة به.

وأما اجتماع الغرر والجهالة فكالعبد الآبق المجهول الصفة قبل الإباق.

ثم الغرر والجهالة يقعان في سبعة أشياء في الوجود كالآبق قبل الإباق، والحصول إن علم الوجود كالطير في الهواء، وفي الجنس كالسلعة لم يسمها، وفي النوع كعبد لم يسمه، وفي المقدار كالبيع إلى مبلغ رمي الحصاة، وفي التعيين كثوب

من ثويين مختلفين، وفي البقاء كالثمار قبل بدو صلاحها فهذه سبعة موارد للغرر والجهالة، ثم الغرر والجهالة ثلاثة أقسام: كثير ممتنع إجماعا، كالطير في الهواء، وقليل جائز إجماعا، كأساس الدار وقطن الجبة، ومتوسط اختلف فيه، هل يلحق بالأول أو الثاني؛ فلارتفاعه عن القليل ألحق بالكثير، ولانحطاطه عن الكثير ألحق بالقليل.

هكذا قال القرافي:

ولك أن تتأمل ثمرة سلعة اشتريتها على هذا النحو من الغرر كالطير في السماء أو كالسمك في الماء!

هل تحصل عليه؟

هل تنتفع به؟

هل تشعر بمتعة تمام البيع إذ سلمت مالك من باعك الغرر ورجعت صفر اليدين؟

* السبيل إلى التخلص من الاغترار

و لعلّي أجد سبيلًا إلى التخلص من الاغترار وثمراته المرة وهو كما قلت في مقدمة هذا العمل أن نعتمد على الواقع نخبره وندرسه ونحسبه فنجمعه ونطرحه ونضربه ونقسمه ونخضّه كما يخض الحليب ليسفر عن زبد وجبن.

وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

وفي ضوء هذه الخبرة نتعلق وفي ظلها نحلم، وأن نفيد من قصص المغترين الذين لقوا آخر الأمر أسوأ مصير.

كالقصص التي ذكرها ربنا تعالى في القرآن الكريم كقصة قارون والمؤمن والكافر وكل من غرته الحياة الدنيا بزينتها فانسلخت عنه أو انسلخ عنها.

وألا ندّعي أننا نستطيع فعل ما لا تستطيعه الجن على غرور منا فلكل طاقة وقدرة لا يتجاوزها.

كيف تغتر فتاة بشاب لا صنعة في يده ولا مال عنده وتزعم أنه بين عشية وضحاها سوف يكون أغنى الناس وسيد الناس؟؟؟

أو يبعث الموتى قبل يوم الدين؟؟

إن التي عرضت على النبي ﷺ رجلًا تقدم للزواج منها تستشيره، أجابها بأنه لا يصلح لأنه لا مال عنده

و أن نحرص على الجوهر دون المظهر فكم من مظهر خداع وكم جلب الغرور من أسقام وأوجاع!

وأن نعلي راية العلم فنتطق بمنطقه ونأخذ بمقتضاه والعلم حقيقة والغرور خيال، ولا يقضي على الخيال إلا الحقيقة.

هذا الجمل وهذه هي النخلة.

وقد قال إبراهيم عليه السلام لمن غره مُلكه وزعم أنه يحيي ويميت: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد رأيت إبراهيم عليه السلام قد علمنا درسًا عظيمًا من دروس التخلص من الغرور وهو انتظار ما رآه مما ظنه ربه فلما أفل كل شيء تبرأ من كل شيء فالكوكب والقمر والشمس قد أفلت جميعًا.

ونحن لا ننتظر حتى بأفل نجم الكذوب نغتر فنحكم من أول نظرة ولو صبرنا ورأينا العواقب ما جرنا الغرور إلى أن نكون شركاء في الأفول مع من غرّنا.

قال تعالى من سورة الأنعام:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قال ابن عاشور:

فلما جن تفريع على قوله وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض بقرينة قوله رأى كوكبا فإن الكوكب من ملكوت السماوات، وقوله في المعطوف عليه نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض. فهذه الرؤية الخاصة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب في إبكات لقومه ملجئ إياهم للاعتراف بفساد معتقدهم، هي فرع من تلك الإراءة التي عمت ملكوت السماوات والأرض، لأن العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتصال بين المعطوف والمعطوف عليه لما في معنى الفاء من التفريع والتسبب، ولذلك نعد جعل الزمخشري فلما جن عطفا على قال إبراهيم لأبيه، وجعله ما بينهما اعتراضا، غير رشيق.

وقوله جن عليه الليل أي أظلم الليل إظلاما على إبراهيم، أي كان إبراهيم محوطا بظلمة الليل، وهو يقتضي أنه كان تحت السماء ولم يكن في بيت.

ويؤخذ من قوله بعده قال يا قوم إني بريء مما تشركون أنه كان سائرا مع فريق من قومه يشاهدون الكواكب، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصناما. وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم.

يقال: جنه الليل، أي أخفاه، وجنان الليل بفتح الجيم، وجنه: ستره الأشياء المرئية بظلامه الشديد. يقال: جنه الليل، وهو الأصل. ويقال: جن عليه الليل، وهذا يقصد به المبالغة في الستر بالظلمة حتى صارت كأنها غطاء، ومع ذلك لم يسمع في كلامهم جن الليل قاصرا بمعنى أظلم.

وظاهر قوله رأى كوكبا أنه حصلت له رؤية الكواكب عرضا من غير قصد للتأمل وإلا فإن الأفق في الليل مملوء كواكب، وأن الكوكب كان حين رآه واضحا في السماء مشرقا بنوره، وذلك أنور ما يكون في وسط السماء. فالظاهر أنه رأى كوكبا من بينها شديد الضوء. فعن زيد بن علي أن الكوكب هو الزهرة. وعن السدي أنه المشتري. ويجوز أن يكون نظر الكواكب فرأى كوكبا فيكون في الكلام إيجاز حذف مثل أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، أي فضرب فانفلق. وجملة رأى كوكبا جواب لما. والكوكب: النجم.

وجملة قال هذا ربي مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة رأى كوكبا وهو أن يسأل سائل: فماذا كان عندما رآه، فيكون قوله قال هذا ربي جوابا لذلك.

واسم الإشارة هنا لقصد تمييز الكوكب من بين الكواكب ولكن إجراءه على نظيريه في قوله حين رأى القمر وحين رأى الشمس هذا ربي، هذا ربي يعين أن يكون القصد الأصلي منه هو الكناية بالإشارة عن كون المشار إليه أمرا مطلوبا مبحوثا عنه فإذا عثر عليه أشير إليه، وذلك كالإشارة في قوله تعالى لقد لبثتم في

كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث، وقوله قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولم يقل فهو الذي لمتنني. ولعل منه قوله هذه بضاعتنا ردت إلينا إذ لم يقتصروا على بضاعتنا ردت إلينا. وفي صحيح البخاري قال الأحنف بن قيس ذهبت لأنصر هذا الرجل يعني علي بن أبي طالب ولم يتقدم له ذكر، لأن عليا وشأنه هو الجاري في خواطر الناس أيام صفين، وسيأتي قوله تعالى فإن يكفر بها هؤلاء يعني كفار قريش، وفي حديث سؤال القبر: فيقال له ما علمك بهذا الرجل (يعني الرسول ﷺ)، وهذا من الأغراض الداعية للتعريف باسم الإشارة التي أهملها علماء البلاغة فيصح هنا أن يهمل مستعملا في معنييه الصريح والكناية.

وتعريف الجزأين مفيد للقصر لأنه لم يقل: هذا رب. فدل على أن إبراهيم عليه السلام أراد استدراج قومه فابتدأ بإظهار أنه لا يرى تعدد الآلهة ليصل بهم إلى التوحيد واستبقى واحدا من معبوداتهم ففرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله.

وظاهر قوله قال إنه خاطب بذلك غيره، لأن القول حقيقته الكلام، وإنما يساق الكلام إلى مخاطب.

ولذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية من لفظها ومن ترتيب نظمها إذ رتب قوله فلما جن على قوله وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وقوله وليكون من الموقنين ورتب ذلك كله على قوله وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة الآية، ولقوله تعالى قال هذا ربي وإنما يقوله لمخاطب، ولقوله عقب ذلك يا قوم إني بريء مما تشركون، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدل به على براءته مما يشركون مع أنه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى لولا أن ذلك هو مدعى قومه؛ فدل ذلك كله على أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه

وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة فيكون قد جمع جمعا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

وقوله هذا ربي أي خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي. قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم فأظهر أنه موافق لهم ليهشوا إلى ذلك ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق. ولا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه عليه السلام لأنه لما رأى أنه ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرا، كالذي يكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى. وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي.

وعلى هذا فالآية تقتضي أن قومه يعبدون الكواكب وأنهم على دين الصابئة وقد كان ذلك الدين شائعا في بلدان الكلدان التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام وأن الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنها صور للكواكب وتماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم مثلما كان عليه اليونان القدماء، ويحتمل أنهم عبدوا الكواكب وعبدوا صورا أخرى على أنها دون الكواكب كما كان اليونان يقسمون المعبودات إلى آلهة وأنصاف آلهة. على أن الصابئة يعتقدون أن الكواكب روحانيات تخدمها.

وأفل النجم أفولا: غاب، والأفول خاص بغياب النيرات السماوية، يقال: أفل النجم وأفلت الشمس، وهو المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، فلا يقال: أفلت الشمس أو أفل النجم إذا احتجب بسحاب.

وقوله «لا أحب» الحب فيه بمعنى الرضى والإرادة، أي لا أرضى بالآفل إلهاً، أو لا أريد الآفل إلهاً. وقد علم أن متعلق المحبة هو إرادته إلهاً له بقوله هذا ربي. وإطلاق المحبة على الإرادة شائع في الكلام، كقوله تعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا. وقدره في الكشاف بحذف مضاف، أي لا أحب عبادة الآفلين.

وجاء بـ الآفلين بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودا إلا وهو عالم.

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس، وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيبا عن هذا العالم، يعني أن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلها لأنه لا يغني عن عُبّاده فيما يحتاجونه حين مغيبه. وليس الاستدلال منظورا فيه إلى التغير لأن قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتفاء صفة الإلهية، ولأن الأفول ليس بتغير في ذات الكوكب بل هو عرض للأبصار المشاهدة له، أما الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه يغيب ويعود إلى الظهور وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعا لهم.

ولأجل هذا احتج بحالة الأفول دون حالة البزوغ فإن البزوغ وإن كان طرأ بعد أفول لكن الأفول السابق غير مشاهد لهم فكان الأفول أخصر في الاحتجاج من أن يقول إن هذا البازغ كان من قبل آفلا.

وقوله فلما رأى القمر بازغا إلخ عطف على جملة محذوفة دل عليها الكلام. والتقدير: فطلع القمر فلما رآه بازغا، فحذفت الجملة للإيجاز وهو يقتضي أن القمر طلع بعد أفول الكوكب، ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه

الكوكب ويطلع بغرب فلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبها طلوع الشمس. وأظهر اسم القمر لأنه حذف معاد الضمير.

والبازغ: الشارق في ابتداء شروقه، والبزوغ ابتداء الشروق.

وقوله هذا ربي أفاد بتعريف الجزأين أنه أكثر ضوءا من الكوكب فإذا كان استحقاق الإلهية بسبب النور فالذي هو أشد نورا أولى بها من الأضعف. واسم الإشارة مستعمل في معناه الكنائي خاصة وهو كون المشار إليه مطلوبا مبحوثا عنه كما تقدم آنفا.

وقوله فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك مع أنه عرض في كلامه بأن له ربا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب. وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب. ثم عرض بقومه أنهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون، لأن قوله لأكونن من القوم الضالين يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالا، ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال لأكونن من القوم الضالين ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه.

وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء الهيئة ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغا مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول لأن المشاهدة أقوى.

وقوله فلما رأى الشمس بازغة أي في الصباح بعد أن أفل القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس لأن الظاهر أن هذا الاستدلال كله وقع في مجلس واحد.

وقوله للشمس هذا ربي باسم إشارة المذكر مع أن الشمس تجري مجرى المؤنث، لأنه اعتبرها ربا، فروعي في الإشارة معنى الخبر، فكأنه قال: هذا الجرم الذي تدعونه الشمس تبين أنه هو ربي.

وجملة «هذا أكبر» جارية مجرى العلة لجملة «هذا ربي» المقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر وحصر الربوبية في الشمس ونفيها عن الكوكب والقمر، ولذلك حذف المفضل عليه لظهوره، أي هو أكبر منهما، يعني أن الأكبر الأكثر إضاءة أولى باستحقاق الإلهية.

وقوله قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

والبريء فعيل بمعنى فاعل من برئ بكسر الراء لا غير يبرأ بفتح الراء لا غير بمعنى تفصى وتنزه ونفى المخالطة بينه وبين المجرور بـ ( من ). ومنه أن الله بريء من المشركين و فبرأه الله مما قالوا و ما أبرئ نفسي. فمعنى قوله بريء هنا أنه لا صلة بينه وبين ما يشركون. والصلة في هذا المقام هي العبادة إن كان ما يشركون مرادا به الأصنام، أو هي التلبس والاتباع إن كان ما يشركون بمعنى الشرك.

والأظهر أن ما في قوله ما تشركون موصولة وأن العائد محذوف لأجل الفاصلة، أي ما تشركون به، كما سيأتي في قوله ولا أخاف ما تشركون به لأن الغالب في فعل البراءة أن يتعلق بالذوات، ولئلا يتكرر مع قوله بعده وما أنا من المشركين. ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي من إشراككم، أي لا أتقلده.

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكا لأن قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهية غيره كما كان إشراك العرب وهو ظاهر آي القرآن حيث ورد فيها

الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض، وهو المناسب لضرب المثل لمشركي العرب بشأن إبراهيم وقومه، ولقوله الآتي الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم.

وجملة إني وجهت وجهي بمنزلة بدل الاشتمال من جملة إني بريء مما تشركون؛ لأن البراءة من الإشراك تشتمل على توجيه الوجه إلى الله، وهو إفراده بالعبادة. والوجه في قوله وجهي حقيقة. ووجهت مشتق من الجهة والوجهة، أي صرفته إلى جهة، أي جعلت كذا جهة له يقصدها. يقال: وجهه فتوجه إلى كذا إذا ذهب إليه. ويقال للمكان المقصود وجهة بكسر الواو، وكأنهم صاغوه على زنة الهيئة من الوجه لأن القاصد إلى مكان يقصده من نحو وجهه، وفعلوه على زنة الفعلة بكسر الفاء لأن قاصد المكان بوجهه تحصل هيئة في وجهه وهي هيئة العزم وتحديق النظر. فمعنى وجهت وجهي صرفته وأدرته. وهذا تمثيل: شبهت حالة إعراضه عن الأصنام وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئا وقصده وانصرف عن غيره.

وأتي بالموصول في قوله للذي فطر السماوات والأرض ليومئ إلى علة توجهه إلى عبادته، لأن الكواكب من موجودات السماء، والأصنام من موجودات الأرض فهي مفطورة لله تعالى.

وفعل وجه يتعدى إلى المكان المقصود بإلى، وقد يتعدى باللام إذا أريد أنه انصرف لأجل ذلك الشيء، فيحسن ذلك إذا كان الشيء المقصود مراعى إرضاؤه وطاعته كما تقول: توجهت للحبيب، ولذلك اختير تعديه هنا باللام، لأن في هذا التوجه إرضاء وطاعة.

وفطر: خلق، وأصل الفطر الشق. يقال فطر فطورا إذا شق قال تعالى فارجع البصر هل ترى من فطور أي اختلال، شبه الخلق بصناعة الجلد ونحوه، فإن الصانع يشق الشيء قبل أن يصنعه، وهذا كما يقال: الفتق والفلق، فأطلق الفطر على إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة تؤهل للفعل.

و«حنيفا» حال من ضمير المتكلم في وجهت. وتقدم بيان ذلك عند قوله تعالى قل بل ملة إبراهيم حنيفا في سورة البقرة.

وجملة وما أنا من المشركين عطف على الحال، نفى عن نفسه أن يكون متصلا بالمشركين وفي عدادهم.

فلما تبرأ من أصنامهم تبرأ من القوم، وقد جمعهما أيضا في سورة الممتحنة إذ قال إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله.

وأفادت جملة وما أنا من المشركين تأكيدا لجملة إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وإنما عطفت لأنها قصد منها التبرؤ من أن يكون من المشركين.

وهذا قد جرينا فيه على أن قول إبراهيم لما رأى النيرات «هذا ربي» هو مناظرة لقومه واستدراج لهم، وأنه كان موقنا بنفي إلهيتها، وهو المناسب لصفة النبوءة أن يكون أوحي إليه ببطلان الإشراك وبالحجج التي احتج بها على قومه. ومن المفسرين من قال: إن كلامه ذلك كان نظرا واستدلالا في نفسه لقوله لئن لم يهدني ربي، فإنه يشعر بأنه في ضلال لأنه طلب هداية بصيغة الاستقبال أي لأجل أداة الشرط، وليس هذا بمتعين لأنه قد يقوله لتنبيه قومه إلى أن لهم ربا بيده

الهداية، كما بيناه في موضعه، فيكون كلامه مستعملا في التعريض. على أنه قد يكون أيضا مرادا به الدوام على الهداية والزيادة فيها، على أنه قد يكون أراد الهداية إلى إقامة الحجة حتى لا يغلب عليه قومه.

فإذا بينا على أن ذلك كان استدلالا في نفسه قبل الجزم بالتوحيد فإن ذلك كان بإلهام من الله تعالى، فيكون قوله وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض معناه نريه ما فيها من الدلائل على وجود الصانع و وحدانيته قبل أن نوحي إليه ويكون قوله رأى كوكبا بمعنى نظر في السماء فرأى هذا الكوكب ولم يكن نظر في ذلك من قبل، ويكون قوله قال هذا ربي قولا في نفسه على نحو ما يتحدث به المفكر في نفسه، وهو حديث النفس، كقول النابغة في كلب صيد:

قالت له النفس إني لا أرى طمعا وأن مولاك لم يسلم ولم يصد

وقول العجاج في ثور وحشي:

ثم انثنى وقال في التفكير إن الحياة اليوم في الكرور

وقوله هذا ربي وقوله لا أحب الآفلين وقوله لئن لم يهدني ربي كل ذلك مستعمل في حقائقه من الاعتقاد الحقيقي. وقوله قال يا قوم هو ابتداء خطابه لقومه بعد أن ظهر الحق له فأعلن بمخالفته قومه حينئذ.

فهل انتفع أحد قبل الاغترار بمن اغتر قبله، فأحجم عن الاغترار متمثلا قول الله تعالى ربنا: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

اللهم اجعلنا من الذين يرون بنورك فلا يغترون، ويحلقون بواقعهم فلا يشطون، ويسمعون فيعقلون، ويعقلون فيعملون، ولا تخزنا يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتاك بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ.د. مبروك عطية

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية،

وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر

# المحتـــويات

# الغــــرور
# وفتنة الإنسان

من نعم الله على عباده أنه شرع لهم ما يصلحهم وحرم عليهم مايفسدهم؛ فجعل رضاه حيث منفعتهم، وجعل سخطه حيث مضرتهم؛ ومن هنا لا يخفى على عاقل لِـمَ حرم الله الغرور وجعله من الحوائل دون دخول الجنة - كما أخبر بذلك المعصوم صلى الله عليه وسلم - وما كان لامرئ أن يدخل الغرور قلبه إذ الملك كله لله والعباد مستخلفون في الأرض يعمرونها لا ليتفاخروا ولا ليتكبروا وإنما لتعلو كلمة الله - تعالى - التي تقضي بالحق لكل العباد.

في هذا الكتاب إطلالة على الذنب الأول (الغرور) الذي من أجله تكبر إبليس عَلى السجود لآدم فاستحق لعنة الله - عز وجل - عبرة لمن أراد السلامة من هذه الآفة الكبرى، فيعرض الكتاب في فصوله الثلاثة: مفهوم الغرور وماهيته التي يخلط كثير من الناس بينها وبين الثقة بالنفس والإخبار بالواقع.

ثم يطوف في نماذج من الرسل الكرام الذين لم يقعوا في هذه الآفة مع أنهم لهم كل كمال بشري.

ثم يسرد الكتاب عواقب الغرور ومآله ليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويظهر الصبح لذي عينين.

الدار المصرية اللبنانية

9 789777 951517